فتوى ضد الإسلام !

صناعة العداء للإسلام فى نفوس الشعوب الغربيـة وقادتـها تتـم بإتقـان يفـوق إتقان الغرب فى صناعة منتجاته التكنولوجية الحديثة. وصناعة الكراهيـة تبـدو صناعة كبيرة تستخدم كـل وسـائل التأثـير والإقنـاع العـاطفى والمنطقـى، وتعمـل بإلحاح على إثارة مشاعر الكراهية والخوف معا من الإسلام والمسلمين.

فى فرنسا صدر كتاب بعنوان (فتوى ضد الغـرب) مؤلفـه رولانـد جاكـار وهـو كاتب معروف له العديد من الكتـب السياسـية مثـل: (الخرائـط السـرية لحـرب الخليـج) و(نهايـة الإمبراطوريـة الحمـراء) و(كـارلوس: الملـف السـرى) و(مـن واشنطن إلى كلينتون) وهو أيضا رئيس المركز الدولى لرصد الإرهـاب فـى بـاريس. والقضية الأساسية للكتاب هى التأكيد على مدى خطورة تغلغل الإسـلام المتطـرف فى الدول الأوروبية، وبالذات شبكة الإرهاب الجزائرى التى يكرر القـول بأنـها أكبر خطر على فرنسا. ويصور رولاند جاكار حـال فرنسـا عندمـا يصـل المسـلمون المتطرفـون فـى الجزائـر إلى السـلطة، ويبـدءون تنفيـذ سـيناريو الحـرب علـى الفرنسيين، ويدعى أنهم يرون أن رسالتهم المقدسة الحـرب علـى الكفـار، وهـذه الحرب لن تكون مستحيلة، بل لن تكون صعبة، إذ يكفى أن يطلق هؤلاء المسلمون صاروخا على ميناء مارسيليا فيقتل ويصيب عشرات من الفرنسيين.

والغريب أن المؤلف يؤكد أن وزارات الدفاع والخارجيـة والداخليـة الفرنسـية قامت بدراسة العديد من السيناريوهات المشابهة، أكدت أن مخاوف من أن تنجح محاولات الإسلاميين للحصول على السلاح النووى، ويشير إلى ما ذكره أبو حمزة المصرى الذى يعتبره أحد المُنظِّرين الأيديولوجيين للجماعات الإسلامية المسـلحة، وهو مقيم فى لندن وحصل على حق اللجوء من الحكومة البريطانية، وقد قال فـى حديث لمجلة أنصار الشريعة: (إذا كانت الحرب النووية هى الوسـيلة الوحيـدة

للدفاع عن المسلمين، ففى هذه الحالة يجب شن هذه الحرب، والإسلام يبرر هذا العمل عند الضرورة كما يبيح أكل لحم الخنزير فى حالة المجاعة).

يقول المؤلف: إن الدول الغربية تأخذ موضوع (الخطر النووى الإسلامى) بجدية شديدة خاصة بعد إعلان باكستان عن تجربتها النووية، ويقول: إن هذا الخطر دفع بريطانيا وفرنسا إلى تصنيع صاروخ جديد جو - أرض اسمه (سكالب) سيتم إنتاجه قريبا، وهذا الصاروخ يتم توجيهه عن طريق الأقمار الصناعية لضرب الأهداف المحددة له. ويكرر المؤلف أن امتلاك السلاح النووى هو الشغل الشاغل عند قادة التطرف الإسلامى.. ويقول أيضا: إن زعيم الإرهاب الدولى أسامة ابن لادن قام بتمويل عشرات الطلبة المسلمين لدراسة الهندسة النووية فى الجامعات الكبرى فى العالم بهدف التوصل إلى تصنيع سلاح نووى صغير.

ويتحدث جاكار عن مناخ الإرهاب فى العالم الإسلامى ويبدأ بنموذج الجزائر فيقول: إنها عانت من خلل اقتصادى منذ خروج الاحتلال الفرنسى منها، وفشلت تجربتها الاشتراكية بعد الاستقلال، فلجأت منذ عام ١٩٨٦ إلى الإسلام، وتبنى الجزائريون الميثاق الوطنى الذى يؤسس الاقتصاد الليبرالى ويجعل المرجعية للإسلام. وفى عام ١٩٨٩ صدر فى الجزائر دستور جديد يقر التعددية السياسية، ويعلن السعى إلى بناء الديمقراطية. وفى أول انتخابات بلدية فى ظل هذا الدستور الجديد حققت جبهة الإنقاذ الإسلامية انتصارا كبيرا، ثم فازت فى الدور الأول فى الانتخابات التشريعية التى أجريت فى ٢٦ ديسمبر ١٩٩١، وكان من المتوقع أن تحصل الجبهة على الأغلبية فى انتخابات الإعادة أيضاً .. وكان مقرراً لها يناير ١٩٩٢، ولكن الجيش تدخل وألغى نتائج الانتخابات، وتم تشكيل المجلس الأعلى للدولة فى مارس ١٩٩٢ واختار على كافى رئيساً له، وبعدها بدأت مرحلة الاضطراب التى لم يشهد تاريخ الجزائر مثلها منذ حرب التحرير، وفى هذه الحرب الأهلية دخلت الجزائر دائرة العنف التى تسببت فى مقتل عدد لا يقل عن ٦٠ ألف شخص، وفقا لتقرير وزارة الخارجية الأمريكية عام ٢٠٠٢، وانتشرت الفوضى وأعمال القتل التى تقوم بها الجماعات الإسلامية فى داخل الجزائر، وانتقلت إلى الجالية الإسلامية الجزائرية التى تعيش فى

فرنسا والتى يبلغ تعدادها ثلاثة ملايين مسلم، وهذه الجالية الإسلامية - كما يقول المؤلف - هى الأرض الخصبة للجماعات المتطرفة لنشر أفكارها بينهم، وتجنيد العديد من المسلمين فى صفوفها.

ثم ينتقل المؤلف إلى النموذج الإسلامى فى أفغانستان فيقول: إن السوفييت عندما قرروا اجتياح أفغانستان فى ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩، كان هذا الغزو هو إشارة للعالم الإسلامى للتحرك وتنفيذ أكبر حملة عالمية للتعبئة، وتجنيد المتطوعين من جميع الدول الإسلامية للقتال ضد السوفييت فى أفغانستان، وأسفرت هذه الحملة عن تشكيل (الفيلق الإسلامى العالمى) الذى استطاع إلحاق الهزيمة بالجيش الأحمر. وانتهى الأمر بانسحاب الاحتلال السوفييتى تاركا العاصمة كابول فى حالة من الفوضى والبلبلة. وبعد عقد من الزمان قضاه هؤلاء المقاتلون المتطوعون فى الحرب ضد السوفييت باسم الإسلام ودفاعا عن العقيدة، كانوا قد أصبحوا على درجة عالية من الكفاءة القتالية فى حرب العصابات فى الجبال، وفى القرى والمدن، وأطلق عليهم اسم (الأفغان العرب)، وكان قد تم اختراقهم من الدول الغربية وفى مقدمتها الولايات المتحدة، وبعد أن انتهت المهمة التى جندتهم أمريكا لها بالقتال ضد السوفييت، أصبحوا إرهابيين إسلاميين، وأداروا أسلحتهم فى اتجاه الغرب، وبعد أن كانوا شركاء للغرب فى تحقيق أهدافه ومخططاته لمدة عشر سنوات، أصبحوا يهددون الأمن والسلام فى العالم بممارستهم لأعمال العنف وقيامهم بعمليات إرهابية.

ثم ينتقل إلى البوسنة، فيقول: إنه فى عام ١٩٩٢ بدأ الإسلاميون فى القيام بالدور الذى قاموا به من قبل فى أفغانستان، حيث وجه زعماء الأصولية الإسلامية الدعوة إلى (سائر المؤمنين) لخوض حرب مقدسة جديدة، مع فارق كبير، هو أن الحرب كانت هذه المرة فى قلب أوروبا وليست فى آسيا مثل حرب أفغانستان أو فى أفريقيا مثل حرب الجزائر. وبدأت كتائب الإسلاميين تضع قواعدها فى البوسنة. ويعتمد المؤلف على ما سمعه من بعض المصادر العربية من أن المسئول عن إنشاء فيلق وكتائب المؤمنين فى البوسنة هو القائد الأفغانى قلب الدين حكمتيار زعيم أحد الأحزاب الإسلامية فى أفغانستان. وفى شهر

أغسطس ١٩٩٢ كان هذا الفيلق تحت قيادة ضابط إيرانى سابق اسمه أحمد صهيب. وتم تأمين الفيلق عسكريا ببعض الجزائريين الأفغان، وبدأ المجاهدون الإسلاميون يتسربون إلى البوسنة، ويدربون عناصر جديدة على السلاح، وأصبح جيشهم هو الجيش الثالث فى البوسنة. والجزء الأكبر فيه يتكون من المتطوعين الإيرانيين التابعين للقوات الخاصة الإيرانية، ومن الأتراك، والأفغان العرب، وبعض المتطوعين من الإخوان المسلمين المصريين والباكستانيين.. وجمع هذا الفيلق أيضاً عناصر من مقاتلى حزب الله فى لبنان، وحركة حماس الفلسطينية، وعناصر من معسكرات الملياردير السعودى أسامة بن لادن، وبعد توقيع اتفاق دايتون لم يغادر هؤلاء المقاتلون أوروبا ليعودوا إلى بلادهم كما حدث بالنسبة للمقاتلين فى أفغانستان، وبقى عدد كبير منهم مقيما فى أوروبا ليشكلوا نواة التطرف التى تهدد الغرب.

ويتحدث عن وجود منظمة إسلامية دولية لا مركزية تمثل شبكة تخضع لتوجيه قيادات دينية إسلامية لها تأثير بالغ على أتباعها، وهذه المنظمة معادية للغرب، وتعارض عملية السلام فى الشرق الأوسط. وعمليات الجهاد فى أفغانستان والبوسنة تتلقى الدعم والتمويل من هذه الشبكة الإسلامية الدولية ومن البنوك الإسلامية، وهذه الشبكة هى التى تجند وتدرب عناصر جديدة وتدفع بها للجهاد هنا وهناك. ويقول المؤلف تعليقا على أن الإرهاب الإسلامى أكثر تطورا وتحديدا لأهدافه من المنظمات الإرهابية الدولية التى تنتمى إلى اليسار المتطرف التى اختفت، لأن الإرهاب الإسلامى يركز على مطالب سياسية أولها (إقامة نظام إسلامى) وفى مقدمة هؤلاء حسن الترابى زعيم الجبهة الوطنية الإسلامية فى السودان الذى كان يدعو إلى (أسلمة) المجتمعات الإسلامية بأن تكون العلوم والفنون وأوجه الحياة كلها إسلامية، وبإقامة نظام سياسى إسلامى عالمى، ويليه الشيخ عمر عبد الرحمن الذى رحل إلى الولايات المتحدة، وكان يشرف على إدارة مسجد فى بروكلين، ثم اتهم بالتورط فى الإرهاب فى أعقاب الهجوم الأول على مركز التجارة العالمى فى نيويورك، وقبل ذلك سبق اتهامه بالتحريض على اغتيال الرئيس المصرى الراحل أنور السادات، ولم تثبت للعدالة المصرية إدانته.

ويذكر المؤلف من بين القادة الدينيين الذين يملكون القدرة على تعبئة المجتمع الإسلامى الشيخ عبد الله الهرارى المشهور باسم الحبشى الذى يقيم فى منفاه فى لبنان بعد هروبه من أثيوبيا، وهو المرشد الروحى للمسلمين فى أثيوبيا. ويضيف المؤلف إلى قائمة الزعامات الدينية المؤثرة الزعيم الأفغانى قلب الدين حكمتيار رئيس حزب إسلامى فى أفغانستان الذى كان يتلقى الدعم من المخابرات الباكستانية خلال فترة الاحتلال السوفيتى لأفغانستان ، وأصبح فى عام ١٩٩٥ رئيسا للوزراء فى أفغانستان. ويقول المؤلف إن حزب حكمتيار يقوم بتدريب المجاهدين الإسلاميين القادمين من الجزائر وأوروبا. ويتهم المؤلف الزعيم الروحى للشيعة فى لبنان الشيخ محمد حسين فضل الله، والشيخ راشد الغنوشى زعيم حركة النهضة الإسلامية فى تونس، ويقول: إنه ينتمى إلى أسرة لها تأثيرها فى المغرب العربى. كما أن له علاقات وثيقة بزعماء جبهة الإنقاذ الإسلامية فى الجزائر.

وبعد أن يتحدث باستفاضة عن دور الزعماء الدينيين فى تشكيل وتوجيه وإدارة المنظمات الإسلامية الأصولية (المتطرفة) عبر العالم، يتحدث عن تمويل هذه الحركات والمنظمات الإسلامية، فيقول: إن البنوك الإسلامية تقوم بالدور الأكبر كمصدر لتمويلها، ويقول: إن هذه البنوك ظهرت إلى الوجود فى عام ١٩٦٩ مع ارتفاع أسعار البترول الخام تعبيرا عن رغبة الدول المنتجة للبترول فى إيجاد وسيلة لإعادة توظيف ما لديها من بترو دولارات فى الاقتصاد العالمى، فقررت إنشاء نظام مصرفى مؤشر ومختلف عن النمط السائد للبنوك الغربية، وبعد ذلك بدأت هذه البنوك فى تقديم المعونات لنشر الدعوة الإسلامية، وتوسيع نطاق نظام اقتصادى إسلامى جديد مختلف عن النظام الاقتصادى الغربى، وأصبح أحد هذه البنوك وهو بنك التضامن الإسلامى بالسودان أحد أهم عشرة بنوك فى العالم، ثم انتشرت البنوك الإسلامية خلال عقد الثمانينات فى أكثر من ٢٠ بلدًا عبر العالم من بينها سويسرا، ولكسمبرج، وماليزيا، وتركيا، والسودان، وتونس، وجزر البهاما، وغيرها من الدول فى أرجاء العالم.

وما يثير اهتمامنا بمثل هذه الكتب أنها تلقى رواجا واهتماما، ولها تأثير بالغ فى تشكيل رؤية الغرب للإسلام والمسلمين. وهى رؤية سلبية لا ترى فى الإسلام شيئاً يستحق القبول.

وفى فرنسا أيضاً نشرت مجلة الاكسبريس مقالا مطولا يوم ١٣ سبتمبر ٢٠٠١ فى أعقاب الهجوم على برجى مركز التجارة العالمى ووزارة الدفاع الأمريكية، كتبه دنيس جامبار والين لويو بعنوان (الحرب ضد الغرب) ويقول المقال: إن الاعتداءات المروعة التى وقعت فى الولايات المتحدة اعتداءات غير مسبوقة، وهى بداية عهد جديد فى تاريخ العالم وتؤكد وجود فجوة بين الحضارات وتطرح مسألة حتمية الرد الأمريكى. فقد بدأت الحرب العالمية الثالثة يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر فى الساحل الشرقى للولايات المتحدة، وهى حرب عالمية من نوع جديد لم يحدث مثلها من قبل بين الإرهاب الإسلامى والغرب، فلم يكن أحد فى الغرب يعرف الموعد أو المكان الذى سيضرب فيه من نسميهم (المحاربون فى سبيل الله) وقد ظلوا ينتظرون هذه الساعة سنوات طويلة، ويشحذون خلالها أسلحتهم خلالها تنفيذا لأمر القرآن لهم: (إن الله مع الصابرين) وفجأة، وفى هذا الصباح المفزع، وخلال دقائق معدودة، اشتعل قلب أمريكا فى مانهاتن، مثلما اشتعل ميناء بيرل هاربور فى الحرب العالمية الثانية. وحدث ذلك بصورة لم تخطر على بال أكثر مخرجى الأفلام المأساوية جنونا وجرأة. وللإنسان أن يتصور أثر ذلك الحادث الذى لم يكن متخيلا ، والذى ظهر فيه عجز أقوى دولة وهى تشاهد انهيار برجى نيويورك وهما رمز الانتصار الأمريكى، كما تنهار قصور الرمال التى يشيدها الأطفال. ولن تنسى أمريكا حالة الخوف والحنق التى اجتاحتها وهى تشاهد فى واشنطن لهيب النيران يلتهم جناحا من مبنى البنتاجون العظيم، وعمدة نيويورك يعلن فى ذهول أن على الأمريكيين أن يصلوا على أرواح هذا العدد المهول من القتلى.

ويقول المقال: إن هذه ليست المرة الأولى التى توجه فيها ضربة لأقوى دولة فى العالم، وتصيب أبراجها. ففى عام ١٩٩٣ هزت شحنة ناسفة مركز التجارة العالمى ذاته، وكانت المؤامرة مدبرة فى الأحياء الفقيرة التى يسكنها المسلمون فى

نيوجرسى، وكانت تلك ضربة للكرامة الأمريكية، وتبين أن الذين قاموا بها مجموعة من المبتدئين المغامرين المغمورين من حوالى عشرة فلسطينيين مسلمين مهاجرين ، من بقايا المجندين فى أفغانستان انقلبوا على أمريكا التى جندتهم ودربتهم. ثم جاء هجوم ١١ سبتمبر الذى كانت الكراهية العمياء للغرب هى الدافع إليه، وقد تم التخطيط له بدقة زمنية جهنمية، تدل على أن الإرهاب الإسلامى تحول من عمل ارتجالى إلى استراتيجية للرعب. ففى الساعة الثامنة و ٤٤ دقيقة وقع الانفجار المروع فى قمة أحد برجى مركز التجارة العالمى، وساد اعتقاد فى البداية بأن هذه طائرة تابعة لإحدى شركات الطيران الأمريكية، وأن الانفجار حادث من الحوادث الجوية المؤلمة ناتج عن مشكلة فنية أو عن خطأ بشرى، ولكن بعد ١٨ دقيقة ارتطمت طائرة بوينج أخرى تابعة لشركة خطوط جوية أمريكية بالبرج الثانى، وبعدها مباشرة علق أحد الطيارين بقوله فى برنامج تليفزيونى: إنه يمكن استخدام طائرة مدنية فى عمل حربى. وسرعان ما أدركت واشنطن أنها حرب شاملة، حيث تم إخلاء البيت الأبيض مقر الرئيس الأمريكى، والبنتاجون مقر وزارة الدفاع، وأعلن الرئيس جورج بوش وهو على متن طائرة السلاح الجوى الأمريكى: إن هذه (مأساة وطنية).. وتم إخلاء (قلاع الغرب) مثل البنك الدولى، وصندوق النقد الدولى، وبورصة نيويورك، وحاولت المخابرات الأمريكية وهى مدججة بالمدافع الرشاشة تغطية الكارثة، وأعلنت إحدى شبكات التليفزيون أن أمريكا فى حالة تأهب قصوى، وهذا ما لم يحدث من قبل إلا فى حالة واحدة عندما نشبت أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢، واجتاح الذعر (ميدان التايمز) واحتشدت الجماهير أمام واجهة وكالة رويترز فى مانهاتن، ولم يحدث مثل هذا الحشد أمام شاشات وكالة الأنباء إلا فى عام ١٩٤٥ عند استسلام اليابان وانتهاء الحرب العالمية الثانية.

ويمضى المقال فى تصوير أثر هذا الهجوم عندما انهار أول برج وبعدها ببضع دقائق انهار البرج الثانى، ثم تحطمت طائرة بوينج تربط خط شيكاغو نيويورك، وبعدها أصابت طائرة بوينج ضخمة من طراز ٧٦٧ البنتاجون فى الصميم، وتكلم نيوت جنجريتش زعيم ثورة المحافظين السابق التى أعلنها عام ١٩٩٥ فقال: إن هذه بيرل هاربور القرن العشرين.

ويكرر المقال الادعاء بأن المسلمين فى كابول وإسلام إباد وأزقة غزة القذرة كانوا يضحكون ويحمدون الله ويرفعون الأعلام، بينما كان الأمريكيون يجهشون بالبكاء أمام صورة الكارثة على شاشات التليفزيون، والجماهير فى دول الغرب يعيشون لحظات من الذهول والتأثر.وبذلك يسعى المقال بخبث إلى تعميق شعور العداء فى الغرب للمسلمين باختلاق واقعة لم تحدث خصوصا بعد أن تكشف أن مشهد الفلسطينيين وهم يرقصون كان مشهدا قديما فى موقف مختلف تأييدا للمقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلى. ولكن إحدى شبكات التليفزيون المغرضة أعادت بثه وكأنه تعبير عن فرحة المسلمين بما حدث للأمريكيين، ولم تهتم شبكات التليفزيون بمتابعة الشعور بالصدمة والرفض فى الجماهير الإسلامية لهذا العدوان على المدنيين الأبرياء.

ويدعى المقال أن المسلمين لم تبدُ عليهم الدهشة لهذه الكارثة، وبدا كأنهم كانوا يتوقعون منذ أعوام أن ينزل العقاب بأمريكا باعتبارها مسئولة عن جميع الآلام التى تسببها للمجتمع الإسلامى.

ويقول: إن دراسة أسباب نشأة الأصولية الإسلامية ترجع إلى مشاعر الإحباط التى تجد جذورها فى الماضى البعيد، من الجراح التى خلفتها الحروب الصليبية، والصدمة بعد استيلاء الصليبيين على القدس فى المرة الأولى فى أواخر القرن الحادى عشر. فضلا عن فقدان العالم الإسلامى لتفوقه تدريجيا ، وصعود الحضارة اليهودية المسيحية، مما أثار الضيق لدى المسلمين خصوصا بعد أن وجدوا أنفسهم مضطرين للاستسلام لهذا التفوق الغربى عليهم. وفى الوقت الذى صعد فيه الغرب إلى القمر ظل العالم العربى الإسلامى مضطرا للاعتماد على الغرب لاستخراج البترول من أرضه، وأدى تزايد قوة إسرائيل وشعور الإحباط بسبب القضية الفلسطينية إلى تزايد الشعور بالإحباط وتحول شعور الإحباط إلى سخط على الغرب وكراهية له، فقد فرضت الدولة اليهودية الصغيرة التى تضم أربعة ملايين نسمة فقط الواقع الذى يعكس فشل العالم الإسلامى، كما فرضت وجودها عسكريا واقتصاديا، وإجمالى الناتج القومى لإسرائيل يساوى إجمالى الناتج القومى الذى يحققه ٢٠٠ مليون عربى. ويضاف إلى ذلك أن سلسلة الحروب الإسرائيلية العربية وما أسفرت عنه من هجرات ومذابح، ثم حرب الخليج التى

خاضتها الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون ضد عراق صدام حسين، كل ذلك أدى إلى تعميق الشرخ بين الحضارتين الغربية والإسلامية.

ويضيف المقال أن أهم دوافع كراهية المسلمين للغرب هو التطور الهائل الذى حققه الغرب، والفقر المزرى الذى يعيش فيه المسلمون، والوجود الأمريكى فى الدول العربية والإسلامية. وفى أعقاب الهجوم الانتحارى على المدمرة الأمريكية فى ميناء عدن باليمن فى أكتوبر ٢٠٠٠ ولقى خلاله ١٧ جنديا حتفهم، عبّر ابن لادن عن هذه المشاعر حين تحدث بسخرية عن (ضعف القوة) العسكرية الأمريكية، ويقول المقال: إزاء الشعور الجياش بالكراهية، وفى زمن الانتحاريين ماذا يمكن للغرب أن يفعل ؟.. وماذا يفعل الإسرائيليون إزاء ما أعلنه الشاب الفلسطينى الذى انقض بسيارة مفخخة على موقع عسكرى إسرائيلى قائلا: (إن الإسرائيليين يرتكبون خطأ جسيما إذا اعتقدوا أن بامكانهم القضاء علينا، فنحن تعودنا على التعرض للمعاناة) ويعلق المقال بأن هذا الشعور بالإحباط يتجاوز حدود الخلاف بين الأصولية الإسلامية والغرب. ويكرر ما قاله صمويل هنتنجتون عن حتمية الصراع بين الحضارتين الإسلامية والغربية، ويقول: إنه فى حقيقته صدام بين الأغنياء والفقراء، وبين السادة الجدد والعبيد السابقين.

والفتاوى ضد الإسلام كثيرة.. فالكاتب الأمريكى جون أوسوللیفان فى مقاله فى صحيفة (ناشيونال ريفيو) الأمريكية بعنوان (فريق متحفظ لا يدرك الحقيقة) فى أكتوبر ٢٠٠١ بعد أحداث سبتمبر مباشرة يقول فيه: إن الرئيس الأمريكى بوش قال: إن الحرب الأمريكية على الإرهاب وليست على الإسلام. وقال رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير أيضا: إن الإسلام دين سلام وتسامح وأن الأعمال التى يرتكبها الإرهابيون ضد تعاليم القرآن. وكرر ذلك بعض السياسيين والمسئولين عن تكوين الرأى العام. والهدف من هذه التصريحات تخفيف آثار هجوم المواطنين الأمريكيين على المهاجرين المسلمين. بالإضافة إلى محاولتهم تشجيع الحكومات العربية والإسلامية الموالية للغرب على قبول استخدام القواعد العسكرية الأمريكية الموجودة فى أراضيهم فى الحرب ضد العراق. أما محاولتهم لمنع المضايقات التى تعرض لها المهاجرون المسلمون فكان القصد منها ضمان

ألا يُقدِّم هؤلاء المهاجرون الدعم أو المأوى لشبكة الإرهاب التى تتزايد المخاوف مما يمكن أن تفعله بعد ١١ سبتمبر.

ثم يقول أوسوليفان إن التعقل فى التأكيدات الرسمية عن براءة الإسلام والمسلمين من الإرهاب، لا يعبر عن الحقيقة التى يؤمنون بها، فهم يؤمنون بخطورة الإسلام الثورى الذى يعتنقه أسامة بن لادن وأتباعه من المسلمين فى كل مكان حتى فى داخل الولايات المتحدة. وبالرغم من أنه لا يوجد فى الإسلام سلطة دينية مركزية على غرار الفاتيكان بالنسبة للكاثوليكية، فإن هناك كثيرا من الملالى الذين يقرون (الجهاد) الذى يقوم به بن لادن وأتباعه ضد أمريكا، ويصدرون الفتاوى بقتل القادة المسلمين المعتدلين. وهناك آيات فى القرآن تبرر الحرب المقدسة ضد الغرب وضد إسرائيل، كما أن هناك بعض التقاليد الإسلامية شجعت فى الماضى على الكراهية والعدوان ضد غير المسلمين من أصحاب العقائد الأخرى. وهذه التقاليد الإسلامية هى التى تُذكى كراهية كثير من المسلمين لثقافة الغرب، وهى الثقافة التى تسود العالم بدلا من الإسلام، والحكومات الغربية تعرف ذلك وتعترف به عندما تعبر عن خوفها من إسقاط الشارع العربى للحكومات الموالية للغرب إذا حدثت أخطاء فى حرب الغرب على الإرهاب.

ويقول المقال: إن الكلمات عن الإسلام المسالم هى فى حقيقتها مُسكِنَات، ولكنها ليست زائفة تماما، لأن هناك محاولات مسالمة وتقدمية فى الإسلام تسعى إلى التوفيق بينه وبين العلم والليبرالية ورأسمالية السوق والحضارة الحديثة عموما. وهذه المحاولات كانت فى السنوات الأخيرة فى موقف دفاعى تجاه صعود الإسلام الثورى الذى يمثل الفلسفة السياسية - الدينية للإرهاب. وهذا الإسلام الثورى يعمل على فرض الأصولية الإسلامية ويدين النظم القائمة فى الدول الإسلامية بأنها فاسدة، ويرفض الغرب ويعتبر أنه يعيش فى الانحلال داخليا، وتقوم سياساته الخارجية على الأطماع والجشع. ولأنهم يعتبرون الغرب عنيفا وسخيفا، فإن الغربيين يرون أن عقائدهم هى عقائد شعوب جاهلة وفقيرة. ولكن هذه العقائد يعتنقها عدد من الحاصلين على أعلى الشهادات الدراسية والعلمية من جامعات الغرب، ولديهم مهارات فنية متقدمة، وموارد مالية هائلة.. كما

يعتنق هذه الأفكار الشباب المتعطل.. أى إن هذه الأفكار العدائية يعتنقها مسلمون مثقفون كما يعتنقها الجهلاء.

ويرى جون أوسوليفان أن الإسلام الثورى لا ينبع من الإسلام وحده، بل له جذور غربية وإسلامية. فهو كما وصفه بحق جيمس بينيت المعلق بوكالة يوناتيد برس (ابن غير شرعى للأصولية الإسلامية والدراسات الغربية عن الماركسية الجديدة) وترجع جذوره إلى الجزيرة العربية، أما عناصره الغربية فتستند إلى النظرية القائلة بأن ثروة وقوة الغرب هى نتيجة سرقته واستغلاله للعالم الثالث. وهى النظرية التى نشرها لينين بعنوان (الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية) وتفرعت عنها فى الخمسينات والستينات نظرية الاستعمار الجديد. ورغم أن الاقتصاديين صاروا يعتبرون هذه الأفكار مجرد كلام فارغ فإن ملالى الإسلام الثورى يعتمدون عليها للدعوة إلى استقلال ورخاء العالم الإسلامى، وهذه الأفكار هى التى تحرك الحرب الإرهابية ضد الغرب وضد الحكومات الصديقة للغرب.

وينتهى أوسوليفان إلى نتيجة غريبة، وهى أن الإسلام الثورى يشبه الشيوعية والنازية فى اعتماده على العنف. والأيديولوجيات الثلاث توصف بأنها (المبادئ المسلحة)، ولذلك يجب هزيمتها بالحرب وليس فقط بالفكر. ولقد كانت النازية والشيوعية سببا لحروب أهلية طويلة فى الغرب، وبمجرد هزيمتها فى الحرب أو فى الصراع الأيديولوجى والاستراتيجى والاقتصادى تلاشى وجودهما ضمن القوى الفكرية والفلسفية، وإن كانت الماركسية مازالت حية تترنح فى أقسام الأدب والسياسة الفاسدة فى جامعات الغرب!

ويقول الكاتب إن هذا الإسلام الثورى يثير هو الآخر حربا أهلية غير معترف بها فى صفوف المسلمين، ولكن الدلائل تشير إلى أن الحضارة الإسلامية تفتقر فى ذاتها إلى العوامل الأساسية لتفادى هذا الخطر؛ لأن الاستياء شديد جدا فى العالم الإسلامى من أمريكا والغرب عموما. وهذا يجعل كثيرا من المسلمين يشعرون بالتعاطف مع أية قوة إسلامية تتحدى أمريكا والغرب، وليس أمام الغرب وأمريكا إلا هزيمة هذا الإسلام الثورى فى ميدان الحرب، والغرب قادر على ذلك.

هل يمكن أن يكون هناك فتوى أكثر عداوة للإسلام وتحريضا على إعلان الحرب على العالم الإسلامى من مثل هذه الفتوى ؟

والمفكرون العرب والمسلمون يؤمنون بأن نظرية صراع الحضارات نظرية مفتعلة، ويكررون الإعلان بأن الحضارة الإسلامية تؤمن بالتعايش والحوار والتعاون بين الحضارات، ولكن كثيرا من مفكرى الغرب يكررون الإعلان عن إيمانهم بصدق هذه النظرية. والمقال الذى نحن بصدده يعيد شرح هذه النظرية فيقول: إن الساحة الجيوبوليتيكية التى نشأت بعد انهيار حائط برلين وانهيار الاتحاد السوفيتى السابق شهدت فى نفس الوقت تغييرا جذريا فى العلاقات بين الدول، وظهرت المواجهة الأيديولوجية والصدام بين الحضارات، واعتقد الغرب أنه يجب على العالم كله أن يتبنى القيم الغربية، وهو فى ذلك مدفوع بانتصاره على الشيوعية، ومقتنع بأن الديمقراطية الغربية ذات صبغة عالمية وليست مقصورة على الغرب فقط. وهكذا كان الصلف الغربى، والإيمان بالنظرية القائلة بأن الخلاص سيتحقق على يد أمريكا، سببا فى فعل لدى المسلمين فتحول الوعى الإسلامى إلى تلاحم إسلامى، وبلغت هذه الظاهرة حدا من القوة جعلها تتجاوز حدود الدول العربية التى رسمت حدودها الدول الغربية. توحد الغرب وأصبحت للحضارة الغربية السيادة على حساب دول إسلامية وعربية ضعيفة ومجزأة كما ظهر ذلك فى حرب الخليج فى مطلع التسعينات. وظهر من يقول: إن ما لم تنجح الحكومات العربية فى تحقيقه سوف يحققه الدين الذى يتجاوز الدول، ويشكل خميرة الإرهاب الذى يضرب اليوم الولايات المتحدة ودول الغرب المذعورة.

وهذا المقال ليس الوحيد فى هذا الاتجاه، ولكنه مجرد نموذج لآلاف المقالات الماثلة والأكثر حماسة فى تحريض القوى الغربية ضد الإسلام والمسلمين. ويكرر الجميع الرجوع إلى صمويل هنتنجتون واعتبار نظريته (كتاب نبوءات) وقوله بأن الحضارات تصنع أكبر القبائل البشرية، وأن الصدام بين الحضارات، إنما هو نزاع قبلى على مستوى العالم. كما يكررون ما كتبه المستشرق برنارد لويس عام ١٩٩٠: أن الغرب يصطدم الآن بحالة فكرية، وحركة تتجاوز حدود المشكلات والسياسات والحكومات التى تجسدها. ويضيف هذا المقال أن ما نراه من

إرهاب إسلامى هو رد الفعل غير المنطقى الغائر فى نفوس أبناء هذا (الخصم القديم) تجاه تراثنا اليهودى - المسيحى، وتجاه وضعنا المتميز اليوم، وإزاء توسع ونمو وازدهار التراث والحضارة اليهودية المسيحية. ويؤسس المقال على كل تلك المقدمات والأسباب النتيجة الجاهزة فى عقول كثيرين من القادة السياسيين والمفكرين والكتاب فى دول الغرب، وهى أن يوم الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بما حدث فيه من هجوم غير مسبوق، وسقوط عدد هائل من الضحايا، يبدو أنه أول يوم فى تلك (الحرب الحضارية) بين الإسلام والغرب. وكما حدث فى الصدام بين الديمقراطية الغربية والشيوعية الذى استمر قرنا من الزمان، فإن الصدام بين الإسلام والحضارة المسيحية التى أصبحت الآن الحضارة الغربية قديم جداً وعمره يزيد على ألف عام، اختلفت أيضا حدته باختلاف الوضع السكانى، والنمو الاقتصادى والحماسة الدينية فى كلا المعسكرين.

وقد بلغ التوتر أشده من جديد لأن الهوة الاقتصادية بين الغرب والعالم الإسلامى آخذة فى الاتساع، مع النمو السكانى الذى يتزايد بسرعة فى الدول الإسلامية وتتزايد معه مشكلة البطالة، فإن العقيدة الإسلامية تزدهر فى تلك التربة الخصبة، ويريد المسلمون استعادة زهو حضارتهم وفخرهم بها فى مواجهة الحضارة الغربية المزدهرة. وفى رأى المسلمين أن ما يحدث للفلسطينيين يعبر عن ازدراء الغرب للعالم العربى والإسلامى. وقد كان مؤتمر الأمم المتحدة لمناهضة العنصرية الذى عقد فى مدينة ديربان بجنوب أفريقيا دليلا على هذا اليأس وتبريرا لاندلاع العنف الإسلامى الدامى الخطير، وقد اشتعلت فى هذا المؤتمر الدعوة إلى مساواة الصهيونية بالعنصرية والتنديد بالدول الاستعمارية. ولن يتوقف المتطرفون عند هذا الحد، ولكنهم سوف يستمرون فى التمادى فى ترويع العالم الغربى الذى يعتقدون أنه جبان، وعلى استعداد للخضوع والاستسلام بالعنف والضغط على أمريكا وإسرائيل. وبالمقابل لا تستطيع أمريكا وحلفاؤها الغربيون أن يظلوا مكتوفى الأيدى أمام الأعمال الحربية التى يقوم بها الإسلاميون. وفى النهاية فإن الرئيس الأمريكى جورج بوش الذى ليست لديه دراية كبيرة بالمسائل الدولية سوف يضطر إلى الثأر كما يقول المقال، وبالنسبة للأوربيين فليس أمامهم إلا أن يتضامنوا مع الشعب الأمريكى الذى قدم لهم العون

مرتين فى القرن العشرين. ومع أن (العدو) غير محدد، وغير معروف، ومن الصعب الإمساك به، فإنه من الضرورى إيجاد وسائل للرد على الهجوم دون الانسياق إلى تحويله إلى نزاع عام.. فقد أثبت التاريخ أنه لا يمكن الرد على القوة بغير القوة. ولهذا السبب فإن هجمات سبتمبر الأسود تضع الألفية الثالثة على الطريق الرهيب المؤدى لحرب جديدة بأشكال جديدة تختلف عن حروب الماضى، وبهذه الحرب يتم احتواء الكراهية العمياء التى جعلت أمريكا تتشح بالسواد مهما كان الثمن .

هذه رؤية غربية للإسلام والمسلمين وقضاياهم، وهذه هى بعض الفتاوى الغربية التى تحرض الغرب على العالم الإسلامى كله.

وتكتمل الفتوى ضد الإسلام بمقال نشرته صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠١ ، أى بعد اليوم التالى لأحداث سبتمبر، والمقال بقلم الكاتب الأمريكى المعروف وليم فاف بعنوان: (الهجمات تكشف أن الشجاعة السياسية هى الوسيلة الوحيدة للدفاع) .. يقول فيه: إن المسئولين العسكريين ومراكز البحوث والدراسات الاستراتيجية التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية، توقعت حدوث هجوم على الولايات المتحدة، وظلوا عشرات السنين يتصورون سيناريو هذا الهجوم. وبالعقلية التكنولوجية للبنتاجون والمزاج الهندسى للمجتمع الأمريكى توصلوا إلى أن هجوم الإسلاميين سيكون بأسلحة الدمار الشامل، وربما تستخدم فيه تقنية عالية، مع احتمال أن يكون الهجوم بالصواريخ، أو بالأسلحة النووية، أو الكيماوية، أو البيولوجية الفتاكة. ولم يخطر ببال الذين أعدوا خطط الدفاع إمكان استخدام الطائرات التجارية، مع أن الولايات المتحدة سبق أن تلقت درسا منذ ٦٠ عاما تقريبا ولكنها لم تتعلم منه، حين ضلت طائرة قاذفة متوسطة الحجم طريقها فى الضباب واصطدمت بمبنى (امباير ستيت) فى نيويورك، وكان وقتها أعلى مبنى فى الولايات المتحدة.

ويوم ١١ سبتمبر تكرر تطبيق هذا الدرس لإحداث رعب شامل فى الولايات المتحدة أدى إلى إغلاق مراكز القيادة الحكومية، وإخلاء المراكز التجارية فى المدن الكبرى، وكانت الآثار النفسية والسياسية لهذا الهجوم أكبر بكثير من الحجم الهائل للخسائر، لحدوثه بشكل مفاجئ، ومأساوى. وبما أن مصدر الهجوم مازال

مجهولا، فإن الخوف والرعب يزدادان، وبذلك حقق الهجوم تأثيره المنشود، وأثبت أن وسائل الدفاع ذات التكنولوجيا العالية التى تفخر بها الولايات المتحدة يمكن اختراقها بأساليب بسيطة وخادعة. واحتمال تكرار مثل هذا الهجوم قائم ما دامت هناك طائرات مدنية وقطارات، وأنظمة لتوليد الطاقة، ومنشآت عامة، وما دام هناك أناس يذهبون إلى العمل وإلى الأسواق، فكل ذلك يمكن اختراقه وتدميره أو استغلاله بطرق تؤدى إلى إلحاق الخسائر النفسية والسياسية والبشرية بالمجتمع ككل.

ويقول وليم فاف: إن الانتقام من الإسلاميين لن يؤدى إلى وقف احتمالات الرد منهم بانتقام مضاد، وهذا ما يحدث فى إسرائيل، فإن قتل الإسرائيليين للفلسطينيين لم يوقف هجماتهم، بل استدعى المزيد من عمليات الاستشهاد. كذلك فإن القول بأن الولايات المتحدة فى حاجة إلى أنظمة دفاع أكثر تعقيدا مما هو متوافر لديها حاليا لن يجدى بعد أن ثبت أن البنتاجون والمخابرات المركزية الأمريكية، ووكالة ناسا للفضاء، وبقية أجهزة الأمن القومى الأمريكية لم تقدر على منع هجوم ١١ سبتمبر، وهى غير قادرة مستقبلا على منع وقوع مثل هذا الهجوم بطريقة أخرى، ولا توجد أنظمة دفاع تكنولوجية ضد هذا النوع من الهجوم، وليس هناك وسيلة إلا أن يكون رد الفعل الأمريكى على هذا الهجوم بشكل آخر. والدرس الذى يجب أن تتعلمه أمريكا من التاريخ هو أنه ليس هناك دفاع حقيقى سوى التقدم بجدية وجرأة لإيجاد حلول سياسية للصراعات الداخلية فى داخل المجتمع الأمريكى، وحلول للصراعات بين أمريكا وأطراف خارجية، والاستنتاج المباشر أن هجوم ١١ سبتمبر كان بسبب الموقف الأمريكى المؤيد لإسرائيل. وقد ظلت الولايات المتحدة لأكثر من ثلاثين عاما ترفض القيام بجهود حقيقية، وغير متحيزة، لإيجاد حل للصراع العربى الإسرائيلى، وقد تدخلت كشريك فى مشكلة الشرق الأوسط لسنوات طويلة، ولكنها لم تتعامل مع المشكلة بدون تحيز لأحد الجانبين، والنتيجة ازدياد الأزمة وتعقدها، وانفصال الجانبين الفلسطينى والإسرائيلى، وهما الآن يعيشان أزمة مشتركة ومأساة متبادلة، وبتفجيرات ١١ سبتمبر تكون الولايات المتحدة قد حصلت على نصيبها من مأساة الشرق الأوسط.

هذا بالضبط ما قاله الكاتب الأمريكى وليم فاف، فى صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية فى اليوم التالى مباشرة لهجوم ١١ سبتمبر .

وفى اليوم التالى – أى يوم ١٣ سبتمبر ٢٠٠١ – كتب آلان أبلار فى صحيفة الموند مقالا بعنوان (هل لليمين الأمريكى المتطرف صلة بحادث الاعتداء على نيويورك وواشنطن ؟) قال فيه: إن هذا الهجوم جعل أمريكا تدرك أن فى عقر دارها شبابا ينتمون إلى حركات هامشية وحاقدة تتزايد شعبيتها، كما اكتشفت أنها تأوى رجالا غاضبين على استعداد للتضحية بأرواحهم للتنفيس عن غضبهم ونزعتهم التدميرية، كما فعل الشاب الأمريكى تيموثى ماكفاى الذى دمر مبنى المباحث الفيدرالية فى أوكلاهوما فى ١٩ أبريل ١٩٩٥ وقتل ١٦٨ أمريكيا، ولم يكن عضوا فى ميليشيا أو جماعة يمينية متطرفة. ولكنه كان على اتصال بهذه الحركات، وقد تم إعدامه فى ١١ يونيو ١٩٩٥، وقام أنصار مبدأ تفوق الجنس الأبيض بإعلان رفضهم للسلطة الفيدرالية الأمريكية وارتكبوا حادثين، وقامت السلطات بمحاصرة أحدهم فى منطقة روبى ريدج عام ١٩٩٢، ومحاصرة طائفة أنصار ديفيد واكو فى تكساس، وأسفر تدخل مكتب التحقيقات الفيدرالية (اف.بى.آى) عن مقتل ٨٠ شخصاً، وهؤلاء كانوا يشعرون بأنهم مهمشون فى أمريكا المزدهرة.

وظهرت فى أمريكا جماعات أطلق عليها الجيش الأمريكى اسم (جماعات الكراهية) تكونت داخل الجيش الأمريكى ذاته، وشكلت لجنة تحقيق برئاسة الجنرال لارى جوردان.. وقامت اللجنة بزيارة عدد كبير من القواعد العسكرية فى الولايات المتحدة ، وفى أوروبا، وآسيا.. وجاء فى التقرير الرسمى لهذه اللجنة أنها قامت بدراسة المناخ السائد بين الجنود الأمريكيين، وكان الهدف الحقيقى لهذه الدراسة التعرف على مدى خطورة وجود جنود داخل الجيش أعضاء فى (جماعات الكراهية) أو متعاطفين معها.

وتم التعرف على ١٢ متطرفاً فقط فى (فورت براج) التى كان تيموثى ماكفاى يعيش فيها عام ١٩٩١، وكانت جماعة سرية أطلق عليها اسم (القوات الخاصة الخفية) قد نشرت خطابا بعنوان (المقاوم) .. وهذا الخطاب كان يحمل معتقدات اليمين الأمريكى المتطرف، وأعلن مركز النهضة الديمقراطية ومقره أطلنطا أنه قام

بإحصاء فى عام ١٩٩٥ تبين منه وجود عدد من النشطاء فى حركات تؤمن بسيادة وتفوق الجنس الأبيض يصل عددهم بين ٢٥ ألفا و ٣٠ ألفاً، منهم أربعة آلاف من المتطرفين يحلقون رءوسهم، ويمكن إضافة ما يقرب من ٢٠٠ ألف من المتعاطفين دون أن يؤخذ فى الاعتبار وجود ١٠٠ ألف عضو تقريباً من مختلف الميليشيات من الأمريكيين المعادين للحكومة، دون أن يكونوا بالضرورة ممن لديهم معتقدات عنصرية. وهناك صلات وعلاقات غير رسمية بين مختلف الميليشيات والجماعات المناهضة للحكومة، وإن كان الباحث الأمريكى المتخصص فى دراسة هذه الجماعات قد ذكر أن المنظمات التى تنتمى إلى «جماعات الكراهية» تعمل مستقلة عن بعضها وليست هناك قيادة مركزية تصدر لها التعليمات. إلا أن ذلك لا يمنع من وجود اتصالات منظمة بين هذه الجماعات، بدليل ثبوت علاقة وطيدة بين تيموثى ماكفاى وتيرى نيكول المتهم الثانى فى حادث تفجير مبنى المباحث الفيدرالية فى أوكلاهوما مع أوساط الميليشيات المتطرفة. والخطر الحقيقى لهذه الحركات أنها عبارة عن أشخاص متفقين فى النزعة والهدف، ولكنهم يعملون بصورة منفردة، كما فعل تيموثى ماكفاى.

والفكرة فى هذا المقال أن فى داخل أمريكا جماعات متطرفة تعمل ضد الحكومة الأمريكية وضد الملونين، ولها عناصر فى داخل الجيش الأمريكى، وقد يكون فى ذلك مفاجأة للبعض. ولكن ذلك كله نشر فى أمريكا من قبل فى أعقاب حادث تفجير أوكلاهوما.

وإذن فإن الإرهاب الإسلامى ليس الإرهاب الوحيد فى العالم، ولكن هناك جماعات إرهابية فى كل القارات وكل الدول تقريباً بما فيها أمريكا ذاتها.

وهذه الحقيقة تتم التغطية عليها لكى يبقى الاتهام موجها إلى الإرهاب الإسلامى وحده، وتكون الحرب على المسلمين وحدهم، وتكون هذه الحرب هى التطبيق العملى للفتوى المتكررة بأن الإسلام دين يدعو فى تعاليمه ومبادئه إلى العدوان والإرهاب. وأنه الخطر الجديد الذى يهدد الحضارة والديمقراطية والازدهار الاقتصادى فى الغرب..!

تشويه القرآن فى ترجمته على أيدى أعدائه !

عندما أشار مسلسل فى التليفزيون المصرى إلى كتاب بروتوكولات حكماء صهيون مجرد إشارة.. ودون تصريح أو تلميح إلى أنه يمثل المخطط السرى للصهيونية العالمية للسيطرة على العالم، قامت ثورة لم يسبق لها مثيل فى الولايات المتحدة فى الإعلام، والكونجرس، والأحزاب السياسية، وجمعيات حقوق الإنسان، ومنظمات محاربة التمييز، ووصلت هذه الحملة الشرسة إلى حد توجيه الاتهامات بسوء النوايا لدى العرب والمسلمين تجاه الديانة اليهودية، والتهديد برفع دعاوى لمحاكمة المسئولين عن تقديم هذا المسلسل بتهمة معاداة السامية، وهى تهمة تعاقب عليها قوانين بعض الدول بالسجن. ووصلت الأزمة إلى حد تحرك القيادات السياسية والتهديد بقطع المعونات الأمريكية لمصر. وحاول السفير الأمريكى فى القاهرة التدخل.. ووصلت الضغوط إلى درجة لا يصدقها عقل!

وفى إسرائيل كانت الحملة أكبر وأشد شراسة، وبلغت إلى الحد الذى جعل الرئيس الإسرائيلى يبعث برسالة رسمية إلى الرئيس مبارك يطلب منه التدخل شخصيا لمنع إذاعة هذا المسلسل، وكان الرد أن المسلسل مجرد عمل فنى عن مقاومة المصريين للاحتلال البريطانى ليس فيه ما يسىء إلى الديانة اليهودية، ومصر لا تسمح بأى مساس بالعقائد الدينية اليهودية والمسيحية والإسلامية، والإسلام يعترف بالديانات السماوية وبالرسل جميعا دون تفرقة.

حدث هذا الزلزال من أجل دقائق فى مسلسل تليفزيونى ورد فيها مجرد ذكر بروتوكولات حكماء صهيون على أنه كتاب موجود ومشكوك فى صحته.

أما حملات العداء والتشويه اليومية للإسلام والمسلمين فى كل وسائل الإعلام المقروءة، والمسموعة، والمرئية فى الولايات المتحدة ودول أوربا، فإنها مستمرة على أنها من علامات الديمقراطية الغربية وممارسة لحرية الرأى وحرية التفكير، ودون أن يتحرك العالم الإسلامى حركة منظمة أو غير منظمة لمواجهة هذا السيل من الافتراء والتشويه. وحتى عندما وصل الأمر إلى تشويه القرآن الكريم وهو الكتاب المقدس عند المسلمين الذى يحتوى على كلام الله سبحانه وتعالى قوبل ذلك بالسكوت..

وفى دراسة للدكتور ثابت عيد الباحث المصرى فى جامعة زيورخ عن ترجمة معانى القرآن منذ جورج سيل (١٦٩٧ - ١٧٣٦) الذى ترجمها إلى اللغة الإنجليزية وقال فى مقدمتها: إن محمدا فى الحقيقة هو مؤلف القرآن، وهو الذى اخترعه، وهذا أمر لا يقبل الجدل. وإن كان من المرجح أن المعاونة التى حصل عليها من الآخرين ليست قليلة.

وايجانس جولد تسيهر مستشرق مجرى الأصل، معظم كتاباته بالألمانية ويعتبر من أكبر المستشرقين الألمان، كان يهوديا متعصبا متحاملا على الإسلام. قال عنه الشيخ محمد الغزالى فى كتابه «دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين»: إنه من أعمدة المستشرقين ودهاتهم، ولا شك أنه قرأ كثيرا من الأصول والمصنفات الإسلامية، ولكنه منذ قرأ وكتب، لم يحمل بين جنبيه إلا فؤادا مترعا بتكذيب الإسلام، فهو يدس إصبعه فى كل شىء، ليتخذ من أى شىء دليلا على أن محمدا كاذب، وقرآنه مفتعل، وسنته مختلقة، والإسلام كله منذ جاء وإلى أن بلغنا (مجموعة مفتريات).. (وقال عنه الدكتور محمد البهى فى كتابه (الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى): عرف بعدائه للإسلام، وبخطورة كتاباته عنه، ومن محررى دائرة المعارف الإسلامية)، كتب عن القرآن والحديث، ومن كتبه (تاريخ مذاهب التفسير الإسلامى) المترجم إلى العربية.

هذا المستشرق أشاد به أساتذة ومفكرون مسلمون كبار مثل الدكتور عبد الرحمن بدوى، والدكتور أبو العلا عفيفى رغم ما فى كتاباته من تشكيك فى أصول الإسلام، والدأب فى إثبات أن رسول الإسلام ﷺ لم يأت بجديد، ولكنه سرق كل

شيء من اليهود والمسيحيين. ولأنه كان ذا منزلة كبيرة بين المستشرقين وصاحب مدرسة فى الاستشراق فقد أثر فى كثير من الدارسين للإسلام الألمان وغير الألمان، ومازال تأثيره مستمرا إلى اليوم، ولا تزال كتبه المليئة بالسموم تعتبر من أهم مراجع طلبة الدراسات الإسلامية فى جامعات أوربا.. بل والجامعات العربية!

وتضم قائمة المستشرقين الذين دسوا السم فى دراساتهم وشوهوا صورة الإسلام فى عقول المثقفين فى الغرب باول كراوس (١٩٠٤ - ١٩٤٤)، وهو من كبار المتعصبين اليهود، برغم أن مصر استقبلته وعينته مدرسا للغات السامية فى الجامعة المصرية سنة ١٩٣٦ وبرغم معاشرته للمصريين، إلى أن وجد منتحرا فى مسكنه بالزمالك فى القاهرة عقب عودته من رحلة إلى القدس فى عطلة صيف ١٩٤٤. وقد كتب الدكتور عبد الرحمن بدوى عنه أنه كان صديقا حميما له، ولم يكن هناك سبب فى حياته الشخصية يدعوه للانتحار. والخيط الوحيد لتفسير هذا اللغز المحير أنه حدث يوم ٦ نوفمبر ١٩٤٤ أن قتل إرهابيون إسرائيليون اللورد موين الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط، وقبضت الشرطة المصرية على القتلة، وحوكموا، وحكم عليهم بالإعدام، ونفذ الحكم، وقد وجدت الشرطة المصرية معهم عنوان مسكن باول كراوس، وتبين أن القتلة من عصابة شتيرن الإرهابية الإسرائيلية، وقد يكون كراوس منتميا إلى عصابة شتيرن، وأنه حين كان فى القدس، وقع عليه الاختيار للاشتراك فى قتل اللورد موين وقد رأت عصابة شتيرن أنه عقبة فى سبيل النشاط الصهيونى لإنشاء دولة إسرائيل، وتصوروا أنه يمالئ العرب، أو فى القليل يحارب الإرهاب الصهيونى ضد الإنجليز فى فلسطين التى كانت آنذاك تحت الانتداب البريطانى، وكان على كراوس أن يختار بين الاشتراك فى عملية الاغتيال أو أن ينتحر، وهو فى الحالتين مقتول، فيبدو أنه اختار الحل الثانى.. هذا هو رأى الدكتور عبد الرحمن بدوى وهو من زملائه المقربين كما ذكره فى كتابه (موسوعة المستشرقين).

ويلاحظ الدكتور ثابت عيد أن اليهود كانوا الأكثر اهتماما بدراسة الإسلام والعلوم الإسلامية، ويتساءل ما الذى يدفعهم إلى ذلك أكثر من غيرهم؟!.. ويجد الإجابة فى قول الباحث السويسرى ارنولد هوتينجر بأن اليهود كانوا -

وما زالوا - أكثر الناس اهتماما بالعالم العربى، وهذا ما يفسر كثرة عدد اليهود بين المستشرقين.. أمثال جولد تسيهر، وباول كراوس، وجرو نباوم، وبرنارد لويس، وجوزيف فان إس.. وغيرهم.. وهم ليسوا فقط يهودا.. ولكنهم يحملون للإسلام عداء شديدا. ويعتبر باول كراوس نموذجا للمستشرق الحاقد على الإسلام وأصوله وعقائده وحضارته وعلومه وعلمائه حتى إنه ألف كتابا للتشكيك فى إنجازات جابر بن حيان فى الكيمياء وكتب فى ذلك بحثا بعنوان (تحطم أسطورة جابر بن حيان)، كما أنه عنى عناية خاصة بنشر تراث الملاحدة فى التاريخ الإسلامى بهدف تشكيك المسلمين فى دينهم.

ويتساءل الدكتور ثابت عيد مرة أخرى: لماذا اهتم الغربيون بأشعار عمر الخيام قبل أن يهتم بها المسلمون ؟ ويجد الإجابة فى أنهم أرادوا نشر هذه الأشعار لما فيها من إغراق فى التغزل فى الخمر ومصاحبة الغانيات والدعوة إلى الاستمتاع بالحياة وبالحرية المطلقة بلا قيود دون أن يتفهموا ما وراءها من معان لا يفهمها إلا المتصوفون، فالخمر والسكر والحب عند عمر الخيام تعبير عن النشوة التى يشعر بها المتصوف وهو غارق فى الحب الإلهى، ولذلك لم يتوقف المستشرقون عند تراث الخيام باعتباره من عظماء علماء الرياضيات فى القرون الوسطى. واهتم المستشرقون أيضاً اهتماما شديدا بشخصية ابن الراوندى لأنه ملحد، ولذلك قام باول كراوس بنشر وترجمة مؤلفاته لأن فيها هجوماً على الإسلام فى صميمه، وتطعن فى أسس العقيدة. وهى من المؤلفات التى كانت تهدف إلى هدم الإسلام وتُعرف على أنها ذروة الزندقة والإلحاد.

أما المستشرق جوزيف فان إس الذى يعمل أستاذ كرسى فى معهد الاستشراق بجامعة تيبنجن فى ألمانيا، فيقول الدكتور ثابت عيد: إنه قابله ليناقشه فى موضوع الإعجاز اللغوى فى القرآن الكريم فوجده يشن هجوما عنيفا على لغة القرآن، ويدافع عن مسيلمة الكذاب، ويوجه الشتائم إلى المؤرخين المسلمين لأنهم أطلقوا عليه اسم (الكذاب)، وحين قال له ثابت عيد: إن محاولة مسيلمة الكذاب تقليد القرآن مضحكة، ولغته فى غاية الركاكة زأر فى وجهه غاضبا وقال: هذه أقاويلكم أنتم - المسلمون - وهى كاذبة. وما كاد هذا المستشرق يسمع

عن مشروع الباحث العراقي الدكتور عبد الأمير الأعسم لجمع كل ما كتبه ابن الراوندى وكل ما كتب عنه حتى سارع بتشجيعه ومساعدته، بل إنه ساهم ببحث خاص فى هذا المشروع بعنوان (الفارابى وابن الراوندى).. ويتهكم «جوزيف فان إس» على الله - سبحانه وتعالى - ويسخر من المسلمين فى كتابه عن الإسلام ويقول فيه: إن الله يتكلم اللغة العربية ولا يخطئ فى النحو! أستغفر الله.

ويقول ثابت عيد: إن جوزيف فان إس شديد التحامل على الإسلام عندما يكون فى قلعته فى جامعة تيبنجن، ولكن عندما تضطره الظروف للسفر إلى دولة إسلامية فإنه يلبس قناعا آخر فلا يتحدث عن الإسلام إلا بالمدح، ومنذ سنوات جاء إلى القاهرة لإلقاء محاضرة فى الجامعة الأمريكية فتحدث عن الجامعات فى بلاد الإسلام، وامتدح الإسلام، ولما عاد إلى ألمانيا استمر يواصل السب واللعن فى الإسلام: ويقول ثابت عيد: إن عداء جوزيف فان إس للإسلام أشد من عداء سلمان رشدى صاحب رواية (آيات شيطانية) التى تضمنت اتهامات مقذعة للإسلام وللرسول ﷺ وزوجاته وبناته.

وكان المستشرق السويدى صامويل نيبرج (١٨٨٩ - ١٩٧٤) يبحث فى التراث العقلانى عند المسلمين. ونشر بمساعدة العالم المصرى أحمد أمين كتاب (الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد) للخياط وامتدح المعتزلة وقال: إنهم دافعوا عن الإسلام دفاعا مجيدا، ولكن صامويل نيبرج ما كاد يصل إلى بلاده حتى شن غارة على المعتزلة متهما إياهم بأنهم كانوا متعصبين ولعبوا دورا كبيرا فى نشر الإسلام!

ويذكر ثابت عيد المستشرق اليهودى الهولندى جاك فاردينبورج وهذا المستشرق أستاذ كرسى الأديان بجامعة لوزان بسويسرا وله كتاب بعنوان (الإسلام فى مرآة الغرب) وزوجته أيضا يهودية متعصبة، حصلت على الدكتوراه فى الأدب العربى فى جامعة اكسفورد تحت إشراف أستاذ مصرى هو الدكتور مصطفى بدوى، وعندما سألها ثابت عيد لماذا اختارت الأدب الإسلامى قالت له: لكى أتحاشى المواقف الصعبة عندما أذهب إلى الدول الإسلامية، مع أنها هى التى قالت: (إن محمدا سرق منا الصيام فى يوم عاشوراء، وأنه كتب القرآن بنفسه).

والملاحظة التى ينبهنا إليها ثابت عيد هى أن المستشرقين حين يتحدثون عن الأدب العربى يتحدثون عنه بموضوعية واحترام، وحين يتحدثون عن العقيدة الإسلامية تمتلئ كتاباتهم بالطعن فى الإسلام، والمثال على ذلك بروكلمان (تاريخ الأدب العربى) وهو عبارة عن فهرست لكتابات العرب فى مختلف فروع العلم، ويتحدث فيه عن التراث الأدبى والعلمى فى الإسلام بتقدير واضح، ولكن كتابه (تاريخ الشعوب الإسلامية) ملىء بالسخرية والطعن فى الإسلام خاصة عندما يتناول ظهور الإسلام. وسيرة الرسول ﷺ، وتطور العقيدة فى الإسلام، ومثله أيضا المستشرق مونتجومرى وات فهو يمجد الإسلام فى كتابه (فضل الإسلام على الحضارة الغربية) بينما يمتلئ كتابه (الإسلام) بالطعن والتشكيك فى الدين الإسلامى.

ويتحدث ثابت عيد عن المستشرق الألمانى مانفريد أولمان زميل جوزيف فان إس وهو متخصص فى دراسة تاريخ الطب فى الإسلام فى جامعة تيبنجن بألمانيا وله كتاب (الطب فى الإسلام).. وهذا المستشرق يكره العرب بشدة، وينتهز كل فرصة للسخرية منهم، ومن تخلفهم، وكذلك المستشرق السويسرى بينديكت راينرت الذى قال لإحدى تلميذاته المسلمات: أنا لا أحب أن أرى أى مسلم فى معهد الاستشراق بجامعة زيورخ ! وقال لثابت عيد: يؤسفنى أنك مسلم ! لأنه لم يعجبه دفاع ثابت عيد عن الإسلام فى أحد أبحاثه.

لماذا ترجم المستشرقون معانى القرآن مبكرا وما زالوا يفعلون ذلك؟.. الإجابة رغبتهم فى توظيف هذه الترجمة للهجوم على الإسلام والإساءة إليه فى مراكز الاستشراق، وفى أذهان المثقفين وأيضا لمحاولة تشكيك المسلمين فى دينهم، تمهيداً للقضاء على ثقافتهم. ومن بين القلائل الذين تحدثوا بإنصاف عن الإسلام الأب روبير كاسبار الذى قال: إن الغرب لم يفهم الإسلام على حقيقته أبدا، ولم يحاول ذلك أبدا.. وحتى خيرة المسيحيين القلائل الذين كانوا يعيشون فى جوار مع الإسلام من أمثال يوحنا الدمشقى، وتيودور أبى قرة، وبولس الصيدونى، فإنهم لم يتمكنوا من إدراك جوهر الإسلام، ولعل ذلك يرجع إلى أن الغرب المسيحى اكتفى على مدى قرون طويلة بتلطيخ الإسلام، ونبى الإسلام، بأسخف الأقوال، دون أن يكلف نفسه عناء دراسة هذه العقيدة. فأول ترجمة لاتينية

للقرآن لم تظهر إلا فى القرن الثانى عشر، أى بعد خمسة قرون من ظهور الإسلام، وتمت هذه الترجمة بمبادرة من بطرس المبجل وتحت إشراف أسقف دير كلونى، وهذه الترجمة، والترجمات التالية لها لم يكن لها هدف سوى أن تكون مادة لتوجيه الإدانة ضد القرآن والتى شارك فيها عدد من أشهر الباحثين.

ويقول المفكر الألمانى هوبرت هيركومر عن أسباب ترجمة معانى القرآن الكريم لأول مرة إلى اللغة اللاتينية: إنه يبدو أن جنود وضباط الصليبيين رفضوا الاعتراف بأنهم يواجهون إحدى ديانات التوحيد القريبة جدا من ديانتهم، فى الاعتراف بوجود الله، والصلوات اليومية، والصيام، والزكاة، وكانت معرفة الصليبيين بالقرآن محدودة جدا. وإن كانت أول ترجمة لاتينية لمعانى القرآن قد ظهرت سنة ١١٤٣ وقام بها روبرت كيتون، لكن الأوربيين كانوا يتطلعون إلى توظيف ترجمة معانى القرآن للطعن فى الإسلام. وكان هذا الإنجليزى - روبرت كيتون - الذى يعيش فى مدينة طليطلة بأسبانيا يترجم تراث المسلمين فى الهندسة والفلك إلى اللاتينية، وبدلاً من أن تكون ترجمة معانى القرآن وسيلة للتفاهم والتقارب استغلت هذه الترجمة للطعن فى الإسلام على مدى قرون طويلة، حتى إن بلدية مدينة بازل فى سنة ١٥٤٢ منعت نشر هذه الترجمة اللاتينية، ولم تسمح بطباعتها إلا بعد تدخل مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتى وقال مارتن لوثر: لا يمكن عمل شىء أكثر إزعاجا لمحمد أو الأتراك، ولا أشد ضررا من جميع الأسلحة، من ترجمة قرآنهم ونشره بين المسيحيين، عندئذ سيتضح لهم أى كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن. فهو ملىء بالأكاذيب والخرافات، وقال عن الرسول ﷺ: (إنه خادم العاهرات، وصائد المومسات)، وقال أيضاً: بعد ظهور الأتراك على حقيقتهم، أرى أن القساوسة عليهم أن يخطبوا الآن أمام الشعب عن فظائع محمد حتى يزداد الشعب عداوة له، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب.

والمستشرق الفرنسى بلاشير هو الآخر أكد أن الهدف من ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأوربية تشكيك المسلمين فى دينهم وقال: كانت المبادرة - إلى ترجمة معانى القرآن - قد انبثقت عن عقلية الحروب الصليبية، وهذا ما سجلته الرسالة

التى وجهها بطرس المبجل إلى القديس برنار مرفقة بنسخة من الترجمة، كما كان الهدف أيضا الرغبة الشديدة فى إزالة كل أثر للإيمان به من أذهان المسلمين.

وحتى القرن السابع عشر كانت هناك أصوات قوية فى الكنائس الغربية تعارض نشر ترجمة معانى القرآن. وأصدر البابا الكسندر السابع الذى ولد عام ١٦٥٥ قرارا بمنع ترجمة القرآن أو نشره، وبعد واقعة تدخل مارتن لوثر لنشر أول ترجمة لاتينية لمعانى القرآن أصبح هناك اتجاه قوى فى الغرب لا يمانع من ترجمة القرآن إلى اللغات الأوربية، لتوظيف هذه الترجمة فى توجيه الطعنات إلى الإسلام وكتابه ورسوله.

وظل الاهتمام الأكبر للمستشرقين بجمع ونشر الأقوال الإلحادية فى الإسلام. وكل من يطعن فى الإسلام من المسلمين أنفسهم يجد التأييد فى الغرب، من أمثال المهاجر السورى بسام طيبى الأستاذ فى جامعة جوتنجن فى ألمانيا فقد تخصص فى الكتابة فى الإساءة إلى الإسلام ففتحت أمامه الأبواب، ووجدت كتاباته رواجا شديدا.

والمستشرق الصهيونى باول كراوس كان أكبر باحث فى الغرب عن كتابات وأفكار الملحدين من المسلمين، ومثله المستشرق الإيطالى فرانسيسكو جابرييلى، والمستشرق السويدى نيبرج. ولذلك نجد المستشرق الألمانى فان إس يهتم بمسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوة وحاول تقليد القرآن ويبدى إعجابه (بالآيات) التى ابتدعها مسيلمة مثل: (يا ضفدع ابنة ضفدع، نقى ما تنقين، أعلاك فى الماء، وأسفلك فى الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين) كما جاء فى تاريخ الطبرى ومثل قوله: (والليل الدامس والذئب الهامس ما قطعت أسيراً من رطب ولا يابس). كذلك اهتم فان إس بما جاء في سيرة ابن هشام عن النضر ابن الحارث الذى سبق مسيلمة الكذاب فى محاولة تقليد القرآن، وقال عنه ابن هشام: .. وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كانوا يؤذون رسول الله ﷺ، وينصبون له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه فى مجلسه ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلم إلىَ، فأنا

أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا محمد أحسن حديثاً منى؟ وقال ابن هشام عن النضر بن الحارث: .. وهو الذى قال فيما بلغنى: سأنزّل مثل ما أنزل الله!

مثل هذا الكلام الفارغ - الذى يقرؤه المسلم ويرى فيه تعبيرا عن الجنون أو الإلحاد الذى بلغ أقصى درجاته، ويرفضه ولا يهتم حتى بقراءاته - يجد اهتماما كبيرا من المستشرقين ويركزون أبحاثهم حوله. ومن هؤلاء أيضا المستشرق الإيطالى فرانشيسكو جابرييلى الذى اعتنى عناية فائقة بالتراث الإلحادى فى كتابات ابن المقفع، وسجل ما ذكره ابن خلكان عن الخليفة المهدى الذى كان يتتبع الزنادقة، لتنقية المجتمع الإسلامى من شرورهم، وقد نشر فان إس الأقوال الإلحادية لابن المقفع فى محاولته لتقليد القرآن بمثل قوله: تأمل صنيع الله بأهل الشام، وقد شملتهم الآثام، وكثر فيهم الإجرام، فيومئذ حين أظلتهم الآطام، والقادمين من الشرق بالخيام، إن ربك صب عليه سوء العذاب، إنه لا يعجل العقاب، وله الجزاء الأوفى يوم الثواب وقوله: يا أيها الناس قد نُسب أهل العراق إلى الشقاق والنفاق، وفى مائها الزعاق، ويظهرون طاعتهم للخلاق، إن ربك هو أعلم بمن حاد عن طريقه، وهو أعلم بالمعتدين، وأوفى للمهتدين. وقد تضمن كتاب الدكتور عبد الرحمن بدوى (من تاريخ الإلحاد فى الإسلام) ما ذكره فرانشيسكو جابرييلى عن ابن المقفع، ونبش المستشرق باول كراوس فى كتابات أبى بكر الرازى وهى تفوق الحصر فى الطب والعلوم حتى عثر فيها على أقوال فيها زندقة فنشرها سنة ١٩٣٩ فى القاهرة تحت عنوان (رسائل فلسفية) تحدث فيها عن كتابين من الميراث الإلحادى للرازى هما (مخاريق الأنبياء) و (نقض الأديان)، ويقول أبو بكر الرازى مشككا فى الدين: من أين أوجبتم أن الله اختص قوما دون قوم وفضّلهم على الناس وجعلهم أذلة لهم، وأحوج الناس إليهم؟ ومن أين أجزتم فى حكمة الحكيم أن يختار لهم ذلك ويعلى بعضهم على بعض، ويؤكد بينهم العداوات، ويكثر المحاربات، ويهلك بذلك الناس ويقول أبو بكر الرازى أيضا: إنكم تدّعون أن المعجزة قائمة موجودة - وهى القرآن - وتقولون من أنكر ذلك فليأت بمثله، ثم قال: إن أردتم بمثله فى الوجوه التى يتفاضل بها الكلام، فعلينا أن نأتيكم بألف مثله من كلام البلغاء والفصحاء والشعراء، وما هو أطلق منه ألفاظا، وأشد اختصارا فى المعانى، وأبلغ أداء

وعبارة، وأشكل سجعا، فإن لم ترضوا بذلك، فإنا نطالبكم بمثل الذى تطالبونا به . ويقول: وأيم الله، وأقسم بالله لو وجب أن يكون كتاب حجة، لكانت كتب أصول الهندسة والمجسطى (كتاب الفلك تأليف بطليموس) الذى يؤدى إلى معرفة حركات الفلك والكواكب، وكتب المنطق، وكتب الطب التى فيها علوم مصلحة الأبدان، أولى بالحجة مما لا يفيد نفعا ولا ضراً، ولا يكشف مستورا (يعنى القرآن الكريم) ويقول أيضا: من ذا يعجز عن تأليف الخرافات بلا بيان ولا برهان إلا دعاوى أن ذلك حجة، وهذا باب إذا دعا إليه الخصم سلمناه وتركناه وما قد حل به من سكرة الغفلة والهوى، مع أننا نأتيه بأفضل منه من الشعر الجيد، والخطب البليغة، والرسائل البديعة مما هو أفصح وأطلق وأسجع منه، وهذه معانى تفاضل الكلام فى ذاته، فأما تفاضل الكلام على الكتاب فلأمور كثيرة فيها منافع كثيرة، وليس فى القرآن شىء من ذلك الفضل، إنما هو فى باب الكلام، والقرآن خلو من هذه التى ذكرناها ..

لولا أن ناقل الكفر ليس بكافر، ولولا أن كشف ما يفعله المستشرقون يستلزم تقديم نماذج مما يقولون وما يستندون إليه من كتابات الزنادقة المسلمين، لما وجدت فى نفسى الجرأة على كتابة مثل هذا الكلام السفيه، وتعالى الله عما يصفون.

ولكن مسيلمة الكذاب وابن المقفع، والرازى لم يكونوا وحدهم ولكن هناك غيرهم مثل قسطا بن لوقا (٨٢٠ - ٩١٢). يقول ابن أبى أصيبعة عنه فى كتابه (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء): قسطا بن لوقا البعلبكى قال سليمان بن حسان إنه طبيب حاذق، نبيل، فيلسوف، منجم، عالم بالهندسة والحساب. وكان فى أيام المقتدر بالله.. ونقل كتبا كثيرة من كتب اليونانيين إلى اللغة العربية، وكان جيد النقل، فصيحا باللسان اليونانى والسريانى والعربى، وأصلح نقولا كثيرة، وأصله يونانى، وله رسائل كثيرة فى صناعة الطب وغيرها، وكان حسن العبارة، جيد القريحة. وكتب أبو عيسى يحيى بن المنجم إلى قسطا بن لوقا، وحنين ابن اسحاق، رسالة فى إثبات نبوة محمد (ﷺ) فكيف كان ردّ قسطا بن لوقا على هذه الرسالة؟ لقد سعى إلى التشكيك فى أسس الإسلام، متهكما على نظرية إعجاز القرآن، مهاجما لغة الوحى، طاعنا فى صحة الإسلام.

يقارن قسطا بن لوقا بين النص القرآنى من ناحية، وشعر هوميروس من ناحية أخرى، فى محاولة للتشكيك فى إعجاز القرآن، ويقول: ولما كان لهوميروس قدرة على تأليف الشعر، ولا يمكن لأحد أن يأتى بمثل شعر هوميروس، يكون هوميروس عندك نبيا، سيما وقد أتى فيه بمعان جليلة القدر جدا، ومن أجل الصناعات، حتى ذكر فيه معانى فى الطب عجيبة .. إلى أن يقول: (ولم أر الأمر فى كتابك - القرآن - جاريا على هذا المجرى، فإنك لا ترجع فيه إلى صنعة من الصناعات فيقول من حفظه وفهمه أقصى فهم: إن أخباره جعلته فى تلك الصناعة رئيسا، فإنك إن ذكرت الإعراب كان الذى يفاد عن الأعراب من كتاب سيبويه وغيره من كتب العرب أكثر مما يفاد منه (أى من القرآن) وإن ذكرت الفقه كان الذى يعلم من كتب أبى حنيفة وابن عُلَيّة وغيرهما من الفقهاء أكثر من الذى يفاد منه (القرآن) وإن ذكرت الشعر والخطب كان الذى يفاد من علمهما من الكتب بهما أكثر من الذى يفاد منه (القرآن) وإن ذكرت الأخبار كان فى التوراة والمسند وغير ذلك من كتب الأخبار أكثر مما فيه (القرآن) ويواصل طعنه فى القرآن فيقول قسطا بن لوقا: (على أنى رأيت قوما يأتون بلفظ من هذا الكتاب (القرآن) ويقيمون لفظا آخر بحذائه، ويقولون لو حصلت هذه اللفظة لكان أحسن وأليق بالمعنى، من ذلك قولهم لو كان مكان قوله (تعالى) والنجم إذا هوى يقول والنجم إذا علا لكان ذلك أقرب إلى المعنى لأن ذلك حلف، ولا يحلف بالنجم فى هويه بل فى أحسن حالاته، أعنى علوه وارتفاعه..

ومثل هذه الأقوال يبحث عنها المستشرقون ليستخدموها فى تعميق الكراهية والعداء للإسلام فى الغرب.

وأكبر شخصية ملحدة فى تاريخ الإسلام هو ابن الراوندى، وقد عاش فى بغداد فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى بين عام ٢٠٥ وعام ٢٤٥ هجرية، وكان من متكلمى المعتزلة ثم فارقهم، وصار ملحدا زنديقا يلازم أهل الإلحاد، فإذا عوقب على ذلك قال: إنما أريد أن أعرف مذاهبهم، ويقال: إن اباه كان يهوديا وأسلم، وكان بعض اليهود يقولون لبعض المسلمين: ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما أفسد أبوه التوراة علينا، ويقال: إنه قال لليهود: قولوا: إن موسى قال: لا نبى بعدى، وكان لا يستقر على مذهب، حتى إنه وضع لليهود كتاب

(البصيرة) ردا على الإسلام مقابل أربعمائة درهم أخذها من يهود سامرا، فلما أخذ المال أراد نقض ما فى كتابه هذا حتى أعطوه مائة درهم أخرى. وله كتاب (الزمرد) يبرهن فيه على إبطال النبوات، وكتاب (الفرند) فى الطعن على رسول الله ﷺ، وكتاب (التاج) فى الرد على الموحدين، وكتاب (عبث الحكمة) وكتاب (الدامغ) فى الرد على القرآن، وكتاب (فضيحة المعتزلة).. وتصدى له فلاسفة المعتزلة من أمثال أبى الحسن الخياط، و أبى على الجباتى، والقاضى عبد الجبار.

وقال ابن الراوندى (إن الرسول (ﷺ) أتى بما كان منافرا للعقول مثل الصلاة، وغسل الجنابة، ورمى الحجارة، والطواف حول بيت لا يسمع ولا يبصر، والعدو بين حجرين لا ينفعان ولا يضران، وهذا كله لا يقتضيه عقل، فما الفرق بين الصفا والمروة إلا كالفرق بين أبى قبيس وحرى (جبلان فى مكة) وما الطواف بالبيت إلا كالطواف على غيره من البيوت) ويقول: إن الملائكة الذين أنزلهم الله يوم بدر لنصرة النبى (ﷺ) بزعمكم، كانوا مغلولى الشوكة، قليلى البطشة على كثرة عددهم واجتماع أيديهم وأيدى المسلمين، فلم يقدروا على أن يقتلوا زيادة على سبعين رجلا.. أين كانت الملائكة يوم أحد لما توارى النبى (ﷺ) ما بين القتلى فزعا، وما باله ما ينصروه فى ذلك المقام)؟.. ويقول عن القرآن: (إنا نجد فى كلام أكثم الصيفى شيئا أحسن من إنا أعطيناك الكوثر).

وما قاله ابن الراوندى كثير.. ولا أريد أن أنقل كل ما قاله وذكره الدكتور ثابت عيد فى بحثه، أريد فقط أن أدلل على أن صناعة العداء للإسلام كانت من خارج الإسلام، وكانت أيضا من الطابور الخامس الذى كان محسوبا على المسلمين وأساء إلى الإسلام، وأعطى للمستشرقين وأعداء الإسلام فى الخارج ما يحاربون به الإسلام.

وهدفى من ذلك أن أحذر المسلمين لكى ينتبهوا إلى كل كلمة تقال على لسان مسلم أو غير مسلم، ولا يستبعدوا أن يكون فى صفوف المسلمين خائن لربه ودينه..

أما عن ترجمات معانى القرآن التى قام بها المستشرقون الألمان فإن الدكتور ثابت عيد يقول عنها: إنها ترجمات جزئية وليست كاملة لمعانى القرآن، وأحدث وأفضل ترجمة لمستشرق ألمانى لمعانى القرآن هى التى قام بها رودى بارت

سنة ١٩٦٦، ويشير إلى مقال للمستشرق الألمانى أوجست فيشر بعنوان (فى مسألة ترجمات القرآن)، وقد أثبت فيه أنه ليس هناك كتاب عربى له هذا القدر الهائل من الترجمات مثل القرآن وتزداد هذه الترجمات من سنة إلى أخرى، ولكن لم تتم ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأخرى ترجمة دقيقة وصادقة لصعوبة نقل هذه المعانى إلى لغات أخرى، وعدم وجود المؤهلين لهذا العمل، وفيشر ينتقد جميع المترجمين الألمان لمعانى القرآن الكريم لأسباب كثيرة؛ من بينها عدم إلمام معظمهم بقواعد النحو العربى وبالأساليب والتعبيرات اللغوية العربية، ولأن غايتهم هى البحث فى القرآن عن عناصر مسيحية ويهودية وتجاهلهم لحقيقة أن هذا القرآن عربى، ويضرب فيشر مثلا على الأخطاء التى وقع فيها المستشرقون الألمان الذين ترجموا معانى القرآن فيقول: إنهم لم يفهموا معنى أربع آيات من الآيات الخمس المكونة لسورة (المسد) فقد أخطئوا فى ترجمة معانى أربع آيات، والآية الوحيدة التى نجحوا فى ترجمتها كانت الآية الثالثة (سيصلى نارا ذات لهب).. ومع ذلك فقد لاحظ الدكتور ثابت عيد أن فيشر نفسه وقع فى خطأ فاحش مثل كل المستشرقين، إذ اعتبر القرآن من تأليف محمد ﷺ، ونظر إليه على أنه نص أدبى لا يختلف كثيرا عن النصوص الأدبية فى الشعر والنثر العربى، وبالتالى اعتقد أنه يمكن إخضاعه للتحليل اللغوى والتاريخى والتعامل معه، كما يتم التعامل مع أى نص آخر فى التراث العربى، وعلى ذلك قال: إن القرآن يعيبه انعدام النظام فى تركيب وترتيب الآيات. وإن السور الطويلة تتكون من آيات غير متجانسة، ونزلت فى أوقات متباينة ومتباعدة، وهذا يجعل مهمة المترجمين أكثر صعوبة!!

هكذا نرى حتى المستشرقين الذين يبدون تفهما للقرآن متفقين مع من لم يفهموه فى أنه ليس نصا إلهيا، وليس من وحى السماء، ويكررون جميعا أنه من تأليف نبى الإسلام ﷺ، ويعلق ثابت عيد على ذلك بقوله: كيف إذن نستطيع أن نعول على هؤلاء القوم ونأتمنهم على ترجمة القرآن ترجمة صحيحة، إذا كانوا لا يؤمنون أصلا بأنه كتاب سماوى؟.

وينقل ثابت عيد عن المستشرق الألمانى المعاصر كريستوف بيرجل عدم رضاه عن الترجمات التى تمت حتى الآن، ويقول عيد إن كريستوف بيرجل متخصص فى

دراسة العلوم الطبية عند العرب، وهو تلميذ عميدة الاستشراق الألمانى الدكتورة أنّا مارى شيمل، ويعتبر من كبار المترجمين الألمان للشعر العربى والآداب الفارسية، وبلغت عبقريته فى الترجمة إلى درجة إتقان ترجمة الشعر العربى والفارسى إلى شعر ألمانى، وقد نال أكثر من جائزة تقديراً لإسهاماته المتميزة فى ترجمة الآداب العربية والفارسية إلى اللغة الألمانية، وفى حوار مع ثابت عيد قال له: إن المستشرقين الألمان لم يتمكنوا من ترجمة معانى القرآن ترجمة دقيقة يمكن الاعتماد عليها، ولذلك فهو يضطر إلى ترجمة الآيات القرآنية التى يحتاج إليها بنفسه، وإن كانت ترجمة رودى بارت جيدة إلا أن أسلوبها ردىء لا يرقى بأية حال إلى الأسلوب الإعجازى للقرآن..

ومع ذلك فإن ترجمة رودى بارت تحظى باحترام كبير فى معاهد الاستشراق فى أوربا ويعتبرونها أفضل ترجمة ألمانية لمعانى القرآن، وقد ظهرت هذه الترجمة فى مجلدين؛ أولهما يتضمن ترجمة النص القرآنى صدر عام ١٩٦٦. والثانى يتضمن تعليقات وفهارس وصدر عام ١٩٧١، ولكن رودى بارت عاد فى عام ١٩٧٤ ونشر مقالا بعنوان (البحوث القرآنية) أشار فيه إلى أنه كرس الجزء الأكبر من حياته العلمية فى دراسة القرآن وترجمة معانيه إلى اللغة الألمانية، وأنه قرأ ترجمة ريتشارد بيل الإنجليزية لمعانى القرآن التى ظهرت سنة ١٩٣٧، وعلى ترجمة بلا شير الفرنسية التى نشرت عام ١٩٤٩، واطلع اطلاعاً وافيا على تفسير الطبرى فى أجزائه الثلاثين المطبوع فى القاهرة عام ١٩٠٣، فى عشرة مجلدات، وعلى تفسير الزمخشرى فى أربعة مجلدات الصادر فى القاهرة عام ١٩٥٣، وكذلك رجع فى بعض المواضع إلى تفسير البيضاوى - فى مجلدين طبعة ليبزج سنة ١٨٤٦، وأنه فى منتهى الحرص والحذر وهو يرجع إلى هذه الكتب، على عكس المترجمين الآخرين الذين نقلوا بعض التفسيرات الغامضة، وأنه كان على وعى بضرورة ترجمة النص بمعناه الذى أخبر به محمد (ﷺ)، كما أنه حرص على تفسير القرآن بالاستعانة بالقرآن ذاته، ومع ذلك فإنه يعترف بأنه وقع فى بعض الأخطاء فى ترجمته لمعانى القرآن.

ويعلق ثابت عيد على ذلك بأن رودى بارت عبقرى، ولكن ماذا تنفعنا عبقريته إذا كان لا يؤمن أصلا بصحة ما يترجمه وإذا كان همه الأكبر إثبات أن محمدا ﷺ سرق هذا وذاك من النصارى واليهود، وإذا كان يتعامل مع القرآن كما يتعامل مع أى نص أدبى، وقد ظهر ما يخفيه فى ضميره دون أن يدرى حين قال: إن السورة الثانية (البقرة) تتحدث فى الآيات من ٦٧ حتى ٧٣ عن ذبح بقرة، ويبدو أن الآيات من ٦٧ حتى ٧١ مطابقة تماما لما ورد فى التوراة.

ولا يملك الإنسان إلا أن يتفق مع ما توصل إليه ثابت عيد من أن ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية يستحيل على غير المسلمين أن يقوموا بها بدقة.. وقد أخطأ رودى بارت فى ترجمة «النبى الأمى»، ولأن المستشرقين يدعون أن الرسول ﷺ هو مؤلف القرآن، فهم يرون أنه لابد أن يكون متقنًا للقراءة والكتابة، ولذلك جاءت قريحة رودى بارت بترجمة كلمة (الأمى) إلى كلمة (الوثنى) أو (الكافر) وهكذا يحرفون الكلم عن مواضعه، كذلك فعل رودى بارت بلفظ (الجهاد) الذى يعرّفه الجرجانى فى كتابه (التعريفات) فيقول (الجهاد هو الدعاء إلى الدين الحق) إلا أن الأوربيين مازالوا مصممين على أن الجهاد يعنى الحرب المقدسة ضد غير المسلمين، وحتى رودى بارت - الذى يعتبر أكثر المترجمين دقة - ترجم لفظ الجهاد إلى لفظ الحرب.. وهكذا.. فإن الترجمة التى تعتبر أفضل ترجمة لمعانى القرآن تتضمن طعنا فى الإسلام وتشكك فى قواعده وأصوله..

ولم تظهر ترجمة صحيحة باللغة الألمانية لمعانى القرآن إلا ترجمة دار بافاريا للنشر والإعلام فى مدينة ميونخ التى استغرق إعدادها عشر سنوات وأصبحت أول ترجمة ألمانية وافية وصحيحة أعدتها لجنة من عشرة مترجمين خمسة عرب وخمسة ألمان، وتتميز بأنها تضم ترجمة النص وترجمة تفسيره أيضا.

وما حدث ويحدث فى ألمانيا يحدث فى كل دول أوربا، وفى الولايات المتحدة وفى الغرب عموما. ويكفى أن تقرأ كتاب الدكتورة زينب عبد العزيز الأستاذة الجامعية المعروفة المتخصصة فى دراسة الحضارة وقد أتمت كل مراحل تعليمها باللغة الفرنسية، وكتابها بعنوان (محاصرة وإبادة موقف الغرب من الإسلام) لنرى كيف تتم صناعة العداء للإسلام من النصوص التى تستشهد بها مثل ميشيل

لونج الذى كتب يقول: إن الكنيسة تعتبر المسيح خاتم الرسالة لذلك فهى لا تعترف بنبى الإسلام. ومثل موريس بوكاى الذى كتب فى مقدمة كتابه (الإنجيل القرآن والعلم)، يقول: (إن المسيحية لا تأخذ فى الاعتبار أية ديانة بعد المسيح، وبذلك تستبعد القرآن، ومثل الفيلسوف الفرنسى بونو دى كوندياك الذى قال فى كتابه (التاريخ الحديث) عن نزول القرآن على الرسول ﷺ: (لقد كوّن مشروعه بمحض الصدفة، وسانده بفضل جرأة احتياله، واستطاع أن يتمه لأن الظروف ساعدته على ذلك، فقد كان مصابا بالصرع، وذات يوم فاجأته زوجته (كاديج) فى إحدى النوبات وتخيلت أنه فى حالة وجد.. واستغل محمد (ﷺ) سذاجتها وأكد لها أنه يرى الرؤيا وأن الله يحدّثه خلالها عن طريق الملاك جبريل، وقامت (كاديج) بنقل ذلك إلى نساء أخريات معلنة أن زوجها نبى، وانتشر الخبر، وتراكمت النبوءات مع تراكم الكلام وتزايده، فقامت الجماهير باتباع ذلك الرجل المهم الذى أقنعهم بسخاء خياله، وقد صدر هذا العام «عام ١٧٦٧».

وقبل ذلك قال الأب لويس موريرى فى (القاموس التاريخى الكبير) سنة ١٦٧٤: (محمد نبى مزيف، عربى الموطن، ولد عام ٥٧١، فقد والديه وهو طفل، وقام عمه أبو طالب بتربيته، ودفعه الفقر إلى أن يخدم عند أحد التجار العرب، وعند وفاة هذا التاجر قام بإمتاع أرملته (كاديج) لدرجة أنه تزوجها، وأصبح وريثها الوحيد، فاستخدم أموالها فى خدمة طموحاته.. وبعد ذلك شارك كل من باتيراس وهو هرطقى يعقوبى، والأب سرجيوس، وهو راهب نسطورى، وعاونه بعض اليهود على تجميع قرآنه، وبذلك أصبح دينه مكونا جزئيا من اليهودية، وجزءا آخر من أحلام هرطقية واستسهالات جنسية لطبيعة منحرفة.. وقامت جماعة من اللصوص الذين لا يعرفون الله ولا الدين باعتناق هذه الديانة).

والأديب الفرنسى بيير بيل كتب سنة ١٦٩٧ فى (القاموس التاريخى والنقدى قائلا عن الرسول ﷺ (إن الملاك جبريل قد علمه وصفة (الطبيخ) التى تمنحه قوة فائقة للاستمتاع بالنساء.. وكان يتباهى بأن وصفة هذا (الطبيخ) تقوى الكلى، وعندما أكل منها أول مرة كان من القوة بحيث هزم أربعين رجلا، ومرة

أخرى ضاجع أربعين امرأة دون أن يتعب).. وهذا ما قاله عالم الإنسانيات الفرنسى دومنيك بودييه فى سنة ١٦٣٢ فى كتابه (التاريخ العام للأتراك): (إن المعجزات من علامات الأنبياء.. وبما أن محمدا لم يكن بوسعه أن يقدم للناس ما يؤكد معجزاته، فقد استعان بالخدع والخرافة ليسوق أفكار شعبه الفظ الجاهل ويفرضها على كل العرب، وفى محاولة منه لاستتباب المشرع بمعجزات جديدة كان يجمع الشعب فى الميدان العام ليكون شاهدا على أن روح الله ينزل عليه، وبينما هو منساق فى اختراع الأقاصيص الجديدة، كانت هناك حمامة مدربة تطير من مكان مًا قرب منكبيه وتلتقط الحب الذى كان يضعه لها فى فتحة أذنه موهما العرب بذلك أنها كانت تملى عليه إرادة الله وكلمات شريعته).

هل يمكن أن يصدق إنسان عاقل مثل هذه الخرافات؟! ولكن ما حدث أن كثيرا من الأوربيين صدقوها ضمن الحملة على الإسلام وكتابه ونبيه.. وفى كتاب الدكتورة زينب عبد العزيز مئات من النصوص والإشارات إلى كتب ومراجع من هذا النوع منذ القرن السادس الميلادى حتى اليوم.. وحتى اللورد كرومر فى كتابه (مصر الحديثة) سنة ١٩٠٨ قال: (إن القرآن هو المسئول عن تأخر مصر فى مضمار الحضارة الحديثة). وذلك ما اتبعه المستشرق الفرنسى المشهور جاك بيرك فى ترجمته للقرآن التى صدرت عام ١٩٩٠.

والحقيقة أن ما جاء فى دراسة الدكتورة زينب عبد العزيز لترجمة جاك بيرك لمعانى القرآن إلى الفرنسية يعتبر مفاجأة للعرب وللمسلمين، لأن جاك بيرك معروف عند الباحثين العرب والمسلمين بأنه منصف للعرب وللمسلمين، حتى إنه حصل على عضوية مجمع اللغة العربية فى مصر، وهذه الترجمة استغرقت ما يزيد على عشر سنوات على حد قوله، وهو يقول: إنه أقدم على ترجمة معانى القرآن لأنه لاحظ أن كثيرا من الناس والمفكرين ينبذون الآن الصورة المادية للحياة المعاصرة، ويرفضون المجتمع الاستهلاكى، هذا المجتمع المادى المحض، ويفضلون مدينة الإسلام الروحية على المدينة المعاصرة وينادون بالعودة إليها. فكأنه أراد بهذه الترجمة الحد من هذه الموجة الآخذة فى الانتشار فى الانجذاب إلى الإسلام.

وتلخص الدكتورة زينب عبد العزيز المحاور الأساسية التى تناولها فى المقدمة ومنها:

- التشكيك فى نزول وترتيب وتجميع القرآن.
- تأثر القرآن بالشعر الجاهلى، وبالفكر اليونانى القديم.
- تأثر القرآن بمزامير داود.
- احتواء القرآن على أساطير ترى التاريخ سلسلة من الكوارث.
- فظاظة صورة الله كما هى واردة فى القرآن.
- غموض التعبير فى الأحكام مما سمح للمفسرين بحرية التصرف وكانت النتيجة أن كل مذهب غير مقبول من المذاهب الأخرى.
- تناقض الشريعة التى جاء بها القرآن مما أدى إلى ظهور الجماعات الإسلامية وإلى القول بعدم فصل الدين عن السياسة.
- ضرب العلمانية الحديثة.
- إثارة قضية خلق القرآن التى تحولت إلى فتنة بين المسلمين.
- تحريف القرآن للأساطير.
- اتهام المفسرين بإلغاء بعض الآيات أو تحريف معناها.
- وجود تشابه بين مفهوم الله فى القرآن ومفهوم الله فى الفكر اليونانى، وخاصة بارمنيدس، وتأثر القرآن بأصداء القانون المدنى وتقنين الكنيسة السورية، والأخذ من الميراث الجاهلى وميراث اليونانيين بعد أن فرض على كل منهما تعديلات استعلائية صارمة.
- إن مشكلة الإسلام اليوم الانفصال بين العقيدة ومسيرة العالم الفعلية، بل مسيرة العالم الإسلامى نفسه، فالإسلام يلجأ إلى الأصول ولا ينقلها إلى الحاضر، و (الذكى) الحقيقى هو الذى يحول الذكرى إلى مستقبل، وهى عملية خلاقة تدمج العصرية بالأصالة لمواجهة التجديدات التى يجب على كل نظام فى العالم الحالى أن يقترح الحلول الممكنة لها، فالثورة

التكنولوجية والعلمية تتعدى مراحل لم تصل إليها من قبل، وانعكاسات هذه الثورة على التصرفات الفردية والجماعية، والتوحد المتزايد للكرة الأرضية والتحديات الناتجة عنه، بالإضافة إلى متطلبات جماهير العالم الثالث فى مجال الحريات، وحقوق الإنسان، والرفاهية.

جاك بيرك ترجم سورة (الإسراء) فجعلها (المسيرة الليلية) وأضاف إلى هذا العنوان عنوانا آخر هو (أو أبناء إسرائيل). وهذا - طبعا - غير وارد فى المصاحف. وترجم اسم سورة (غافر) إلى (المؤمن أو المتسامح)، وسورة (النصر) ترجمها إلى (النجدة المنتصرة). ولم يستخدم كلمة (النصر) الفرنسية أبدا رغم أنها تكررت فى القرآن ما يقرب من مائة مرة، وكأنه يأبى كتابة النصر للإسلام أو كتابة أن الإسلام انتصر. وسورة (الفتح) ترجمها بما معناه (أن كل شىء ينفتح)، وسورة (الروم) ترجمها باسم (روما) عاصمة إيطاليا! وسورة (الملك) ترجمها بكلمة تعنى (الملكية) علما بأن كلمة المُلك بمعنى ملكوت الله موجودة فى اللغة الفرنسية ومستخدمة فى العهد القديم والعهد الجديد فى الإنجيل. وسورة (التكاثر) ترجمها إلى ما معناه (التنافس عن طريق العدد).

تقول الدكتورة زينب عبد العزيز إنه لا يمكن أن تكون هذه الأخطاء صدرت عن المستشرق الكبير جاك بيرك بدون قصد فهذا مستبعد لمن كان فى مثل مكانته العلمية، والتفسير الوحيد لذلك أنه تم بسوء قصد. بدليل أنه أصر على ترجمة كلمة (الرسول) ومعناها فى القرآن النبى ﷺ فلم يستخدم كلمة النبى ليبعد عن ذهن القارئ معنى النبوة واستخدم كلمة معناها (المرسل) أو المرسال. ولم يستخدم كلمة مسجد ولها مقابل بالفرنسية معروف واستخدم كلمة تعنى جزءا من الكنيسة حول المذبح تتم فيه المراسم الطقسية. وقد تعنى مكانا مقدسا بصفة عامة، كما استخدم كلمة أخرى مشتقة من اللاتينية معناها (كنيسة صغيرة تستخدمها جماعة معينة. وبهذه المعانى ترجم (المسجد الحرام). وترجم إسراء الرسول إلى المسجد الأقصى بأنه إسراء فى لحظة من الليل إلى (النهائى) لكيلا يربط القدس بالإسلام !

وجاك بيرك يعرف اللغة العربية جيدا، بل هو ضليع فى اللغة العربية، ويعرف معنى كل كلمة بمنتهى الدقة، فكيف يترجم كلمة (الألباب) إلى كلمة (النخاع) فى الفرنسية وهو يعلم أن وقعها فى الترجمة يثير السخرية لدى القارئ الفرنسى، ومع أن كلمة (الألباب) وردت فى القرآن ست عشرة مرة إلا أنه لم يترجمها بمعناها المقصود أو المنطقى والذى يعنى (ذوى العقول) أو (ذوى الأفهام). وكيف يترجم (إن الله لا يخلف الميعاد) فلا يقول إن (الميعاد) هو وعد الله أو وعيده ولكن يترجمها بكلمة (راندفو). وحذف من سورة آل عمران فى الآية قوله تعالى: (وأنزل التوراة والإنجيل) فلم يذكر هذه العبارة وتوقف عند منتصف الآية الرابعة عند قوله تعالى (وأنزل الفرقان).

أما أسلوبه فى وصف الله فقد ترجم ما ورد منه فى القرآن بكلمات معناها أن القرآن يشير بروعة مرعبة إلى الذعر الذى سيصيبكم أمام الحاكم (ويقصد الله) وهاهى ذى القشعريرة تسرى فى أبدانكم عند مجرد ذكر اسمه. وتناول مضمون الآية (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) إلى ما معناه: (أن الله يمحو ويبدل ويؤكد النبوءات وفقا لهواه) ويترجم (لكل أجل كتاب) بما يفهم منه أن القرآن هو المقصود وأن القرآن له أجل، وينسب هذا المعنى زورا إلى أبى بكر الصديق ويضع فى الهامش أن مصدره فى ذلك الطبرى فى المجلد ١٣ صفحة ١١١ السطر ١٤ وهو متأكد أن هذا التزوير لن يكتشفه أحد ولن يرجع أحد إلى المرجع الأصلى للتأكد منه:

وتشير الدكتورة زينب عبد العزيز إلى أن ترجمة جاك بيرك بما فيها من تحريف وتشويه وإساءة ليست الوحيدة وقد صدرت بعدها ترجمتان إلى اللغة الفرنسية، وتطالب بتشكيل لجنة لترجمة القرآن لأن هذا العمل يفوق قدرة فرد مهما يكن علمه، لأن هذا المشروع يحتاج إلى خبرات وتخصصات متعددة فى اللغة والنحو، والتاريخ، والسيرة، والفقه، والأصول وغيرها..وما نقلته عما صدر من ترجمات القرآن ليس إلا قطرة من بحر.. هناك ما يفوق الحصر من الأخطاء والتشويه للقرآن والإسلام وللرسول عليه الصلاة والسلام.

وأرجو أن يتفهم القارئ أنى نقلت بعض ما قيل عن الإسلام والرسول ولم أنقل كل ما قيل، وما لم أذكره مما لا يطاق ولا يقبله ضمير المسلم، ولكن فقط أردت أن

أوجه لطمة على وجه من يقولون: بأنه ليس هناك عداء للإسلام فى الغرب لعلهم يفيقون، وأردت أيضاً أن أوجه لطمة للمسئولين عن الدفاع عن الإسلام لكى يشعروا بمدى التقصير الذى ارتكبوه فى حق الإسلام، ولأقول إن مئات الملايين من الدولارات التى أنفقت على هذا الجيش من العلماء ذهبت هدرا.

وأخيرا أرجو أن تتذكروا أن ناقل الكفر ليس بكافر.

مَن وراء الحملة على الإسلام ؟

فى تقرير لمعهد جوته انترناسيونس برس الألمانى أن العوامل السياسية الخفية دفعت المستشرقين الألمان والدارسين للإسلام عموما إلى اتباع الحذر فى التعامل مع الدين الإسلامى والتاريخ الإسلامى، فلم يُترجم إلى اللغة الألمانية غير عدد متواضع من الكتب العربية والإسلامية بسبب العلاقة الخاصة بين ألمانيا وإسرائيل.

ومن هذه الكتب التى يشير إليها التقرير كتاب (العالم الإسلامى) الذى يشرح دور المسلمين كقوة عظمى فى العهد العثمانى ثم أصبح المسلمون الآن مجرد فريق يتفرج على ما يحدث فى التاريخ دون أن يكون له دور فيه سوى دور هامشى، ومثل كتاب (انتقام الرب) للكاتبة الفرنسية جيل كيبل وقد ترجم إلى الألمانية، وهو يتحدث عن الجماعات الأصولية الإسلامية وخطرها.

وما يحدث فى ألمانيا يحدث فى دول أوربا، ويحدث ما هو أسوأ منه فى الولايات المتحدة.

ففى فرنسا صدر كتاب بعنوان (الإسلام فى أوربا) تأليف روبير بيتسولفى وفرنسوا زبال، يكرر أن فى الفكر الجمعى الأوربى اتجاها عاما نحو الإسلام يدخل الخوف منه فى نفوس الأوربيين، ونتيجة لذلك فإن هناك ازدواجا فى مواقف الأوربيين من الإسلام، وهذه المواقف تتراوح بين الانجذاب إلى هذا الدين من ناحية، والخوف والقلق منه من ناحية أخرى، وهذا ما أدى إلى ما تعانيه الجاليات الإسلامية فى بريطانيا من العنصرية، وإن كانت العنصرية فى بريطانيا غير منظمة، ولا توجد أحزاب أو تيارات سياسية تبلور وتجسد هذه النزعة العنصرية، كما يفعل حزب الجبهة الوطنية فى فرنسا مثلا، ومع ذلك فإن أبناء

الجاليات الإسلامية يعانون فى بريطانيا من التفرقة والتمييز بسبب انتمائهم إلى الإسلام، وهذه التفرقة وهذا التمييز دفعا المسلمين فى بريطانيا إلى الانغلاق، والتزمت، والتمسك بالتقاليد والعادات التى نشئوا عليها فى مجتمعاتهم الإسلامية الأصلية.

ويقول الكتاب إن بريطانيا عرفت العنصرية من قبل، ولكنها كانت عنصرية إزاء الملونين، أما اليوم فإن العداء فى بريطانيا قائم على أسس ثقافية دينية، ويستخلص الكتاب أن المجتمع البريطانى ذاته ليست لديه الرغبة فى أن تنصهر الجاليات الإسلامية وتذوب فيه وتصبح جزءا من نسيجه! وإن كان المسلمون لا يواجهون عقبات عندما يمارسون شعائرهم الدينية، أو عندما يعلمون أبناءهم الإسلام، أو يقيمون المساجد، على عكس ما يحدث فى هولندا، فإن المسلمين يجدون العقبات عندما يريدون ممارسة عباداتهم، سواء فى صيام رمضان، أم فى الذبح طبقا للشريعة الإسلامية، وفى الفترة الأخيرة أصبح ممنوعا عليهم إلقاء خطب الجمعة باللغة العربية بعد صدور قرار من الحكومة بأن تكون الخطبة والدروس الدينية باللغة الهولندية، وبعد أن وضعت الحكومة كاميرات تسجل بالصوت والصورة كل ما يقال داخل المساجد.

ويقول الكتاب: إن هولندا اشتدت فيها الحملة على المسلمين وظهر الخطاب المعادى للإسلام على ألسنة رجال السياسة ورجال الدين والمثقفين مستغلين ما جاء فى رواية (آيات شيطانية) لسلمان رشدى من اتهامات وطعن فى العقيدة الإسلامية وفى نبى الإسلام (ﷺ)، وتجسد ذلك فى كتاب صدر بعنوان (سقوط هولندا بلاد السذج) وهو من تأليف مؤلف أخفى اسمه واستخدم اسما مستعارا هو (محمد رسول)، وفى هذا الكتاب تخويف للشعب الهولندى من أن هولندا سوف تسقط فى أيدى المسلمين، وأن الجماعات الإسلامية المهاجرة إلى هولندا ليست إلا قنبلة موقوتة سوف تنفجر عندما تجد الفرصة. ويصف الكتاب المسلمين بأنهم مجرمون، وأن الإجرام تأصل فيهم من عقيدتهم، وهم يعانون من العقد الجنسية، ولذلك يركزون الدعوة الإسلامية على المرأة ويصورونها على أنها شيطان، وأنها منبع الشرور فى العالم ويشتدون فى القسوة عليها، والمسلمون أيضا ميالون إلى العنف، والفساد جزء لا يتجزأ من سلوكهم وتكوينهم الأخلاقى، كذلك

فإنهم يحملون فى أعماقهم كراهية لغير المسلمين ورغبة دائمة فى الاعتداء عليهم إن استطاعوا.

وفى هولندا «الحزب الشعبى للحرية والديمقراطية» تقوم مبادئه على إعلان العداء السافر للإسلام والمسلمين، وقد نظم هذا الحزب ندوة عن الإسلام والمسلمين فى الغرب تحدث فيها زعيم الحزب واشتد فى الحملة توجيه الاتهامات وإثارة مشاعر الكراهية ضد الإسلام والمسلمين، على الرغم من أن هولندا تعطى المسلمين الذين يحملون جنسيتها حق التصويت فى الانتخابات المحلية.

ويقول الكتاب: إن فى أسبانيا حساسية خاصة تجاه الإسلام والمسلمين، فقد عاشت تحت الحكم الإسلامى العثمانى ثمانية قرون ازدهرت فيها حضارة عظيمة انتهت بعد ذلك بسقوط غرناطة عام ١٤٩٢، وصدر بعد ذلك قانون عن الأجانب فى أسبانيا فى يونيو ١٩٨٥ أعطى لليهود امتيازات خاصة لم يعطها للمسلمين.

وكذلك الحال فى إيطاليا، فقد ظل الجنوب الإيطالى خاضعا للحكم الإسلامى عدة قرون، وترك ذلك رواسب وآثارا عدائية أثرت فى مشاعر الإيطاليين من الحكام والقادة والمثقفين، كما تأثرت علاقة إيطاليا بالإسلام بوجود الفاتيكان الذى ظل يناصب العداء للإسلام قرونا طويلة، كما تأثرت هذه العلاقة بوجود الأحزاب الشيوعية القوية التى ظلت لها الهيمنة على عقول المفكرين والصفوة لفترة طويلة واشتركت فى الحكم على مدى السنوات السابقة على انهيار الاتحاد السوفيتى، وهذه الأحزاب خاضعة لما فى النظرية الشيوعية والفكر الماركسى من فلسفة مادية وإنكار الأديان عموما والنظرة الدونية للإسلام على وجه الخصوص، وما زال هذا التأثير المزدوج ملموسا حتى اليوم.

وفى عام ١٩٩٨ قررت منظمات المسلمين بريطانية مطالبة وزير الداخلية بتعديل قانون العلاقات العرقية البريطانى الذى يحظر التمييز على أساس الأصول العرقية، لكى يشمل حظر التمييز بسبب الدين أيضا، وذلك لكى يكتسب المسلمون حصانة قانونية تحميهم من التمييز ضدهم، ولجأت هذه المنظمات إلى المحكمة العليا بطلب تعديل هذا القانون ليشمل المسلمين، فأصدرت المحكمة العليا فى ٢٧ أكتوبر ١٩٩٨ حكمها برفض هذا الطلب، واستندت المحكمة فى أسباب حكمها إلى أن المسلمين فى بريطانيا ينتمون إلى ديانة وليس إلى مجموعة

عرقية، وذلك على الرغم من أن القوانين البريطانية تحمى اليهود والسيخ ولا تمتد هذه الحماية القانونية إلى المسلمين.

وكان السبب فى تحرك المجلس المحلى فى ميرتون بجنوب بريطانيا أن أحد كبار أعضاء الحزب الوطنى البريطانى العنصرى، وهو بول بالارد قد قام هو وجماعته بشن حملة ضد المسلمين بعد أن سُمح لهم بتحويل بدروم قديم إلى مسجد، وشملت هذه الحملة توزيع منشورات وتعليق ملصقات تسىء إلى المسلمين، وتعرَّض المسلمون أثناء الصلاة لإهانات وبصق عليهم أنصار بول بالارد. واعتبر الادعاء العام أن الأدلة التى قدمت إليه لا تكفى لتوجيه الاتهام إلى بالارد، خاصة أن بالارد أنكر أن الملصقات التى ضبطت فى حوزته عندما ألقى القبض عليه فى يناير ١٩٩٧ تخصه، واعترف بالارد بأن ما تعرض له المسلمون تهديد وإهانة، لكن الادعاء العام قرر أن المسلمين لا تشملهم الحماية المقررة فى قانون العلاقات العرقية، وبالتالى لا يمكن توجيه الاتهام إلى بالارد بالإساءة إلى جماعة عرقية طبقا لهذا القانون.

ومنذ سنوات والمنظمات البريطانية الإسلامية تقوم بجهود فى أوساط أعضاء مجلس العموم من أجل تعديل القانون البريطانى بحيث يتعامل مع المسلمين كما يتعامل مع اليهود والسيخ الذين يوفر لهم القانون حماية قانونية ضد التمييز والتفرقة، وتناضل هذه الجماعات لكى تقرر وزارة التعليم تدريس الدين الإسلامى للتلاميذ المسلمين فى المدارس البريطانية.

وفى ١٣ مارس ١٩٩٥ نشرت صحيفة السياسة الكويتية نقلاً عن (ميدل ايست جورنال) دراسة كتبها ب. أ. روبيرسون بعنوان (أوربا والإسلام بين اللغز والحقيقة: الإسلام يتحول فى نظر الغرب إلى حركة توسعية بعدما كان سدا أيديولوجيا قائما فى وجه الشيوعية الملحدة) قال فيه: إنه منذ أواخر السبعينات زاد التركيز فى الغرب على موضوع إمكانية تحول الإسلام إلى قوة سياسية تهدد أوربا وباقى أرجاء الغرب، وخلال هذه الفترة ساهم عدد غير قليل من الأحداث فى تسليط المزيد من الأضواء على مسألة الإسلام والمسلمين مثل الثورة الإيرانية، والحرب العراقية الإيرانية، واغتيال الرئيس المصرى أنور السادات، وعمليات اختطاف الغربيين على يد حزب الله فى لبنان، وحرب الخليج الثانية فى ١٩٩١، والمدى الذى بلغه صدام حسين فى كسب جماعات إسلامية فى الشرق الأوسط

وشمال أفريقيا، وانتهاء الحرب الباردة وزوال التهديد الشيوعى بما أحدثه من فراغ محسوس فى الشعور بالخطر عند الغرب. وعزز الاتجاه إلى الإسلام ظهور النقاش النظرى حول صدام الحضارات، واتهام الغرب للدول الإسلامية بعدم احترام حقوق الإنسان، فى حين اتهم المسلمون الغرب بأنه غارق فى المادية والانحلال مما يمثل خطرا على المجتمع الإسلامى.

ويقول التقرير: إن الشعور بالقلق المتزايد كان يكمن فى هذا الجدل، ومع ازدياد المهاجرين المسلمين إلى أوربا، وطبيعة هؤلاء المسلمين، أصبح القلق على أشده وزاد من القلق ظهور الكساد الاقتصادى فى الغرب، وقد أدت كل هذه العوامل إلى تزايد الضغوط الشعبية على الحكومات لفرض القيود على تدفق هؤلاء المهاجرين إلى أوربا.

وإزاء ذلك اتخذت حكومات أوربا والولايات المتحدة واليابان مواقف حذرة تتسم بالحساسية من الإسلام، وتزايد موقف الحذر مع السياسة الأمريكية الجديدة التى بدأ تنفيذها الرئيس جورج بوش فى التعامل مع المشكلات فى الشرق الأوسط بالتهديد بالقوة أو باستخدام القوة. وبما أن أوربا لها مصالح اقتصادية وتجارية فى الشرق الأوسط منها توريد الأسلحة، فقد توسعت فى علاقاتها التجارية والاقتصادية مع دول المنطقة، وساهم هذا التوسع فى استقرار الاقتصاد الأوربى، ولكن ذلك أدى إلى زيادة تأثير دول الشرق الأوسط على المصالح الأوربية، وتضاءلت قدرة الأوربيين على فرض إرادتهم للدفاع عن هذه المصالح.

ويتساءل التقرير: هل الخطر الإسلامى قائم فعلا، أو هو محتمل على المدى القريب أو البعيد؟ وهل هذا الخطر يتهدد أشخاصا، أو يتهدد جماعات، أو يتهدد الشعب، أو الدولة، أو يتهدد النظام الدولى؟ ويجيب بأن هذا الخطر قد يكون عائدا بجذوره إلى الصدام التاريخى بين أوربا التى كانت مسيحية وبين العرب، والعثمانيين بعدهم. أما القلق الأوربى- فى أواخر القرن العشرين- من الإسلام فإنه راجع إلى الثورة الإيرانية فى ١٩٧٩ التى أطاحت بحليف قوى للغرب كانت له أهمية استراتيجية كبيرة حين أطاحت بشاه إيران، وزاد القلق بسبب لغة الثورة الإيرانية المعادية للغرب، وهى لغة لها قاموس خاص بها جاء بمفردات جديدة مثل (الشيطان الأكبر)، وجاءت أيضا بفكر يبرر اختطاف الرهائن، والدعوة العلنية إلى تصدير الثورة، واعتبر الغرب أن هذه الثورة ترفض

القوانين والمعايير الدولية، وتتطلع إلى تغيير البنية القائمة فى الشرق الأوسط. وإن كانت طموحات هذه الثورة - بالنسبة لدول المنطقة - إذا تم تجريدها من اللغة الحماسية العدائية فإنها لن تختلف عن طموحات شاه إيران الذى كان يريد أن يجعل من إيران قوة إقليمية، غير أن الولايات المتحدة كانت ترى أن تطلعات الشاه وقدراته تتوافق مع استراتيجيتها العالمية، أما إيران الثورة فقد اعتبرتها الولايات المتحدة خطرا يتهدد النظام الإقليمى والمصالح الغربية.

ويقول التقرير: إن الغرب كان ينظر إلى الإسلام فى السابق على أنه أحد السدود الأيديولوجية فى مواجهة الشيوعية الملحدة، والآن بعد غياب الشيوعية، أصبح الغرب يعتبر الإسلام حركة توسعية، خاصة وأن الثورة الإيرانية دأبت على تطوير نزعة متشددة معادية للغرب. وفى لغة الخطابة كانت تردد أصداء لغة الخطابة للقومية العربية عندما كانت فى أوج العداء للغرب، مع اختلاف أهداف الثورة الإيرانية عن أهداف القومية العربية. وقد تعمق القلق فى الغرب من إمكانية ظهور دول إسلامية أخرى على النموذج الإيرانى، ويخشى الغرب من أن بعض الدول التى تتخذ خطا إسلاميا متشدداً يمكن أن تنقلب ضد الغرب وتهدد المصالح الحيوية الأوربية والأمريكية، فضلاً عن وجود دول معينة تعتنق فكر البعث المعادى للغرب، وإن كانت فكرة البعث عن ضرورة الوحدة العربية لم تتحقق إلا مرة واحدة فى أيام دعوة عبد الناصر المحمومة للقومية العربية، إلا أن هذه الوحدة التى قامت بين مصر وسوريا لم تدم طويلا. والآن هل يستطيع الإسلام المُسَّيس أن يحقق ما استحال تحقيقه بالوحدة السياسية والاقتصادية عندما كانت أيديولوجية القومية العربية هى السائدة؟

ويقول التقرير: إن الغرب قلق أيضا لصعوبة احتواء الدول العربية والإسلامية، وإدماجها فى إطار أيديولوجية الغرب؛ وذلك لوجود قوى وضغوط فى كل مجتمع عربى وإسلامى، تمثل عقبة فى احتواء الغرب لهذه الشعوب. ويضاف إلى ذلك أن هذه الدول بدأت تسير فى طريق الاندماج فى الاقتصاد العالمى، وقد أدى ذلك إلى ظهور طبقات وشرائح من المجتمع ترتبط مصالحها بمصالح شبكة عالمية، وأصبح ذلك ملموسا فى تدفق الأموال والمنتجات، وتزايد الاتصالات وانتقال الناس والأفكار والنماذج الثقافية، وكان لابد لهذا التداخل

بين الغرب والعالم العربى والإسلامى من أن يؤثر على الثقافة والهوية والأمن فى العالم العربى والإسلامى، وأدى ذلك بدوره إلى ظهور ردود فعل دفاعية وهجومية، وأدت ردود الفعل هذه إلى تراجع على الجانبين فى الانفتاح على الآخر، وكان لذلك تأثيرات ونتائج استراتيجية واقتصادية. ويضاف إلى كل ذلك أن الحوار بين الدول العربية والإسلامية والغرب يجرى فى ظل اختلال كبير فى القوة لكل من الطرفين وعدم التوازن فى جميع المجالات عسكرياً واقتصادياً وتكنولوجياً، مما يجعل الحساسية بين الطرفين مستمرة، والشعور بأن العلاقات هشة ومعرضة لنكسات. وفى هذا السياق ظهرت الحركات الإسلامية، ونشأ فى الغرب الشعور بالخطر والتهديد من جانب الإسلام. فهل فى طبيعة الإسلام تهديد للآخرين؟ هذا السؤال لا يجد الغرب الإجابة الواضحة عنه، لأن الإسلام ليس عقيدة واحدة، وليس عقيدة ثابتة كما يبدو أمام الغربيين، فهم يرون أنه يتغير من زمن لآخر، وليس واضحا أمام الغرب وجود موقف موحد ومتجانس من الإسلام يمكن أن يؤدى إلى استراتيجية سياسية واحدة للبلاد الإسلامية أو حتى للدول العربية على الأقل!

ووسائل الإعلام فى الغرب عجزت عن إدراك المعنى الكامن فى الاختلاف والتنوع فى مفاهيم وقيم وفقه المسلمين، خاصة مع وجود جماعات من المسلمين كل منها تقدم تفسيرا وفهما مختلفاً للإسلام عما تقدمه الأخرى، مما يعنى أن المسلمين أنفسهم لا يفهمون الإسلام فهما واحدا، والاختلافات بين المسلمين تدور حول جوهر الإسلام ذاته وحول المعتقدات الإسلامية. حتى إن بعض الجماعات تحكم على غيرها بالكفر والخروج من الملة، والأمر لا يقف عند حد التعددية الدينية، ولكنه يصل إلى التعددية التشريعية والفقهية. وقد يكون الإسلام دينا ثابتا على التوحيد، ولكن توجد فى علم الفقه وعلم اللاهوت اختلافات وتفسيرات متعارضة، بينما أصبح على الفقه الإسلامى أن يتعامل مع سلسلة من القضايا والمشكلات الحديثة. وهناك مشكلة أخرى ينطوى عليها الدين الإسلامى ناتجة من تعدد الآراء والاختلافات فى التفسير بين المحافظين من ناحية، والمعتدلين فى الوسط، والمتطرفين الداعين إلى النضال ضد الطرف الآخر من المسلمين، والمواجهة بين جماعات وطوائف المسلمين ليست بسبب الأمور والقضايا الفرعية،

ولكن بسبب التعارض فى مفاهيم الدين واللاهوت والسياسة، وخصوصا ما يتعلق بالموقف من الدولة ومن الأوضاع القائمة فى المجتمع، وهذه المواجهة ظهرت وانتشرت على امتداد السنوات المائة والخمسين الماضية، مع ظهور جماعات وحركات فى العالم الإسلامى كانت ردا على الاستعمار والإمبريالية الغربية، ومقاومة للتدخل الغربى فى شئون المجتمعات الإسلامية، وكان الدافع لهذه الجماعات والحركات السعى إلى استعادة الهوية الثقافية والحضارية المميزة، والتطلع إلى تقرير المصير.

ويقول التقرير: إن هذه الحركات الإسلامية متنوعة ومختلفة فيما بينها، ولكن ما يجمع بينها هو عدم قبول أنظمة الحكم فى الدول الإسلامية التى تسير وفقا للطراز الأوربى. وقد تحولت هذه الجماعات إلى حركة دولية لها هدف عام هو استعادة الثقافة والقيم التى تحكم المجتمع وفقاً لشريعة السماء، كما تتفق فى القول بأن المجتمع الإسلامى أصبح مخترقا بمؤسسات ذات أصول إمبريالية واستعمارية، وتردد أن هدف الإصلاح الدينى عندها يتمثل فى رسم حدود واضحة بين المؤسسات الحالية الموروثة عن الاستعمار، وبين المؤسسات الإسلامية كما ينبغى أن تكون فى مجتمع يستمد كل شىء من الشريعة. ولأن هذه الجماعات تعمل على إقامة مؤسسات تساعد الطبقات الدنيا فإنها تتمتع بقدر غير قليل من الجاذبية لدى بعض الفئات فى الريف والحضر.. من الأميين والمتعلمين.. خاصة فى الفترة التى أعقبت عام ١٩٦٧ فى الشرق الأوسط بعد أن تم افتضاح ضعف العالم العربى افتضاحاً صارخاً فى مواجهة أعدائه، وفى مواجهة العالم الخارجى. وازدادت شدة النقد خاصة من الطرف الإسلامى المتشدد الذى ركز هجومه على الحكومات لعدم قدرتها على حماية ثروة الأمة، وعدم وفائها بالالتزامات الإسلامية تجاه المجتمع، وأيضا بالهجوم على الحكومات الغارقة فى الفساد، والحكومات التى تطبق سياسات تتناقض مع مصالح المواطنين وفقاً لتعاليم الإسلام.

يقول التقرير: إن كل ذلك انعكس على الأوضاع السياسية فى الدول الإسلامية، وأدى إلى عدم الاستقرار، والشعور بالاخفاق، على الصعيدين الداخلى

والخارجى، وظهرت مراجعات وانقسامات داخل الحركات الإسلامية. فإن نجاح هذه الحركات فى توسيع قاعدتها فى أحد المجتمعات الإسلامية التقليدية نتيجة عوامل خاصة بهذا المجتمع أو ذاك فى العالم الإسلامى، سواء كانت عوامل عرقية، أو لغوية، أو ثقافية، أو تاريخية، أدى إلى ظهور جماعات أخرى أقل تشددًا، وظهرت خلافات وانشقاقات ناتجة عن الصراع من الجماعات حول قضايا التحديث ومدى إفسادها للنموذج الإسلامى، فهناك جماعات تفضل العمل وفق برنامج قائم على التحديث ضاربة عرض الحائط بالقيم التقليدية الموروثة، وتتعامل - لذلك - مع الجماهير بمستوى معرفى مختلف، ويكتفى بأن تكون لها قاعدة جماهيرية ضيقة، وهذه الجماعات هى التى فضلت الخيار الصعب، وتقبلت أن تدخل فى مواجهة مع المنظمات والجماعات الإسلامية الأخرى التى تطرح دعوة جذابة لجماهير أوسع إلى المفاهيم التقليدية للدين، وللقيم الثقافية والاجتماعية، وللعلاقات السياسية، ونظام الحكم، وأدى هذا الاختلاف الجوهرى إلى مأزق واجهته الجماعات الإسلامية على اختلافها، نتيجة التعارض فى فهم العقيدة والطقوس الدينية والعبادات، وأيضا بسبب التناقض بين رؤية كل منهما للاستراتيجية والتكتيكات لنشر الرسالة.

ويضيف التقرير أن هناك سمة أخرى من سمات الإسلام تدل على التعقيد الذى يعوق وحدة المسلمين، وهى عدم وجود نص يحدد جهة أو فئة أو طبقة معتمدة توضح للمسلمين ما تريده الشريعة وما يريده الله منهم على وجه التحديد وبما لا خلاف عليه، وهذا ما أشار إليه رايموند بيكر فى كتابه (الخوف من الإسلام)، فالمسلم يقيم علاقته بالله مباشرة، دون أن يكون ملزما باتباع رجل دين معين، أو مؤسسة دينية معينة، وقد أدى ذلك إلى أن كل مؤمن بالإسلام يستطيع إقامة علاقة مباشرة مع الله ويكون هو عالم اللاهوت، ومفسر الشريعة لنفسه، وهذا المنطق يعتمده كثير من المسلمين، وبالتالى فليس هناك أى تنظيم للدعوة، ويستطيع أى شخص عادى أن يعتلى المنبر ويعظ الناس بما يراه، ويستطيع أى شخص أن يفسر الشريعة لنفسه وللآخرين، ويستطيع أى شخص أن يدعو إلى تكوين جماعة تتبعه وتتبع تفسيراته الخاصة. ونتيجة لذلك فإن الحكومات فى

الدول الإسلامية تجد صعوبة فى الرقابة على المتحدثين والعاملين باسم الدين الإسلامى، وإن كانت الحكومات تقوم بتعيين رجال الدين وتحاول رقابة ما يقال فى المساجد إلا أن الظاهرة التى تعرف باسم (الإسلام غير الرسمى) تطفو على السطح، ويشدد قطاع الإسلام غير الرسمى الهجوم على رجال (الإسلام الحكومى) ويتهمونهم أمام الناس بالتقاعس عن حماية الدين كما ذكر باتريك جافنى فى دراسته عن (الإسلام الشعبى) المنشورة فى حوليات الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية والاجتماعية عام ١٩٩٢.

يقول التقرير: إن المشكلة فى العالم الإسلامى أن الحركات والروابط الإسلامية مستقلة، ترفض رجال الدين، وترفض المؤسسات الدينية، وترفض تدخل الحكومة، كما أن الحكومات لا تستطيع التحكم فى آراء ومعتقدات رجال الدين الرسمى وغير الرسمى، وليس أمام الحكومات إلا فرض قيود على عدد من الجماعات الإسلامية، وسد طرق العمل السياسى أمامها.

وهذا التقرير يحتاج إلى إعادة قراءة لأن ما وراء السطور هو الأهم، وسوف نجد نقاطا كثيرة تحتاج إلى الرد والتصحيح.. ولكن من الذى قرأ..؟ ومن الذى اهتم بالرد..؟ ولمن يتوجه بالخطاب لتصحيح المفاهيم الخاطئة؟.. هل يتوجه إلى المسلمين؟، أو يتوجه إلى من يؤمنون وينشرون هذه المفاهيم فى الغرب..؟

ومن الذى فكر فى الوصول إلى إجابة عن هذه الأسئلة تؤدى إلى عمل لتصحيح الكثير من المفاهيم الخاطئة عن الإسلام والمسلمين؟

وتبدو الأصابع الصهيونية وراء كثير مما ينشر فى الصحافة الأمريكية، لتخويف الأمريكيين والغربيين عموما من الإسلام. ومثال ذلك المقال الذى نشر فى مجلة نيوزويك الأمريكية فى مايو ١٩٩٥ بعنوان (هل يمكن لأوربا أن تتغلب على الكراهية والتعصب وتعيش فى سلام مع المسلمين المهاجرين؟) ويسعى المقال إلى إقناع قارئه باستحالة التغلب على مشاعر الكراهية والتعصب ضد الإسلام فى أوربا، واستحالة التعايش السلمى بين الأوربيين والمهاجرين المسلمين. ويبدأ المقال بإشارة لها تأثيرها النفسى على القارئ الغربى المسيحى فيقول: إنه توجد كنيسة صغيرة فى زاوية فى أحد شوارع ايست اند فى لندن يرجع تاريخ إنشائها

إلى عام ١٧٤٣، وعلى مدى تاريخها استخدمت للصلاة لطوائف مسيحية مختلفة، وفى وقت من الأوقات كانت كنيسا يهودياً، أما اليوم فقد تحولت إلى مسجد للمسلمين، وتبدو الكنائس المجاورة خالية من المصلين، وعلى واجهته وضعت لافتة تدعو إلى إحياء الخلافة الإسلامية. وفى بعض الزوايا فى باريس ظهرت أيضا عملية الإحياء للإسلام فى أوربا، ففى حى يدعى (نقطة الذهب) فى مونمارتر حيث تتلألأ كاتدرائية القلب المقدس، تجمع مئات المسلمين فى مستودع تم تحويله إلى مسجد للاستماع إلى شيخ يبلغ من العمر الثانية والثمانين، وفى سياق خطبته قال: (إن المستقبل فى يد الله)، ويقصد بذلك أن المستقبل فى أوربا سيكون للإسلام، وهذه رسالة لم يكن أحد يتوقع سماعها فى قلب أوربا.

ويقول الكاتب الصهيونى فى نيوزويك: لقد جاء المهاجرون المسلمون إلى دول أوربا ليقيموا فيها، وقد إرتفعت المآذن فوق مدريد وإيطاليا وغيرها، وذلك بعد مرور أكثر من ١٢٥٠ عاماً على نجاح القائد الفرنسى شارل مارتل فى صد المسلمين عندما كانت جيوشهم على أبواب (بواتييه) و(تور)، واليوم أصبحت أوربا من جديد ميداناً لنشاط الإسلام، كما يقول عالم السكان الفرنسى جان كلود تشيسنيه.

ويقول: إن الكثير من مفاهيم الغرب عن الإسلام مصدرها ما يحدث فى العالم الإسلامى من اضطرابات سياسية وأحداث مرعبة، والصراع الأوربى مع المسلمين فى البوسنة حيث المسلمون هم الضحايا، وزاد من نذر الشر الإسلامى على أوربا التطرف الإسلامى فى شمال أفريقيا وشبه القارة الهندية، وفتوى الخومينى بإهدار دم سلمان رشدى بسبب ما فى كتابه (آيات شيطانية) من تجديف، وأضيف إلى ذلك إعلان سكرتير عام حلف شمال الأطلنطى ويلى كلايس، وكذلك إعلان ستيلا ويمنجتون من المخابرات البريطانية بأن (الإسلام هو الخطر الجغرافى- السياسى فى المستقبل). ونتيجة لذلك أصبح المسلمون هدفاً مفضلاً للهجمات العنصرية من تيار الفاشية الجديدة والساسة اليمينيون، وهؤلاء تتزايد أعدادهم مع ترنح الاقتصاد الأوربى. وفى الوقت نفسه فإن الإسلام يؤثر الآن فى الحياة اليومية فى أوربا بوسائل لا حصر لها، ويمتد تأثيره إلى كل شىء تقريبا من الأدب، إلى الثقافة الشعبية، وحتى الأزياء. وتتضاعف فى أوربا المساجد

والمدارس الإسلامية، وظهرت محلات بيع اللحم والمخابز الإسلامية فى كثير من المدن الأوربية الكبيرة، حتى إن العالم الفرنسى جيل كيبل مؤلف كتاب (من الله إلى الغرب) وكتب أخرى عن الأصولية الإسلامية قال: إن أوربا فى الإسلام اليوم، والإسلام فى أوربا، أى إن وجود الإسلام أصبح حقيقة فى الحياة الأوربية. وقد أراد د. تشيسنيه إثارة مشاعر الغربيين ضد الإسلام فقال: إن أعداد المسلمين أصبحت تفوق أعداد اليهود والبروتستانت فى دول أوربا ذات الأغلبية الكاثوليكية مثل بلجيكا، وفرنسا، وإيطاليا، وأسبانيا، وفى المحصلة النهائية فإن المسلمين فى أوربا يزيد عددهم على عشرة ملايين، وهناك المزيد فى الطريق، ونتيجة انخفاض معدلات المواليد فى أوربا وزيادة متوسط الأعمار فإن أوربا تعتمد على المهاجرين؛ لأنهم عمالة رخيصة وتمثل دعماً لنظام الرعاية الاجتماعية فيها، ولأنهم أقرب مورد للعمالة المهاجرة لدول أوربا - فيما عدا ألمانيا - فى البلاد الإسلامية المجاورة لأوربا. حتى إن فرنسا تتوقع أن يزيد عدد سكانها من العرب والمسلمين على ستة ملايين وربما ثمانية ملايين خلال السنوات الخمس عشرة القادمة، أى ما يزيد على ١٠٪ من عدد سكان فرنسا المتوقع فى ذلك الوقت. ويقول تشيسنيه: إن أوربا عقيمة ولكنها غنية، والعالم العربى والإسلامى فقير ومزدحم بالسكان. ولكن مسلمى أوربا أبعد ما يكونون عن الوحدة، فهم ينحدرون من بلاد وأعراق وطوائف مختلفة، وإن كان بعضهم يمارس الشعائر الدينية بحماس، إلا أن الكثيرين إما غير واثقين من أنفسهم وإمّا غير متمسكين بالدين، ومع ذلك فهناك نوع من الوحدة بينهم بسبب العجرفة والتجاهل اللذين يحيطان بهم. وفى استطلاع للرأى أجرى فى فرنسا فى عام ١٩٩٤ قال غير المسلمين فى فرنسا إن فكرتهم عن الإسلام تتلخص فى: التعصب أولا، والخنوع ثانيا، ورفض القيم الغربية ثالثا.

ويقول: إن أى مسلم يشعر فى هذه الأيام منذ اللحظة الأولى التى يدخل فيها أوربا بالتوتر، حيث ينظر إلى المهاجرين ذوى البشرة الداكنة نظرة فيها الكراهية والرفض. ويعانى المسلمون المهاجرون من الغضب نتيجة البطالة، وهناك اضطرابات حدثت فى فرنسا وبلجيكا نتيجة شعور المسلمين بالظلم، ويكررون الشكوى من مطاردة البوليس لهم. وفى نفس الوقت ازدادت المخاوف

فى نفوس الأوربيين من الإسلام الذى يبدو أمامهم وكأنه استعاد قوته، وأدى ذلك إلى وجود مناخ من التوتر، كما أدى إلى تبادل عدم الفهم، وإحياء التاريخ الطويل من الحملات الصليبية، وحملات الجهاد، والثورات القومية العربية، إلى الإرهاب والإرهاب المضاد، بحيث يبدو من المستحيل كسر أو تغيير هذا القالب. وتفسر كارين ارمسترونج مؤلفة كتاب (الحروب المقدسة) وكتاب (تاريخ الله) مشاعر الغرب تجاه المسلمين فتقول: (إن كراهيتنا للمسلمين فى أوربا تعود إلى حقبة الحروب الصليبية، وقد تطورت فى الوقت نفسه إلى جانب معاداة السامية).

والأمر الآن فى أوربا يختلف عما كان عليه يوم كانت أوربا فى أمس الحاجة إلى العمالة الرخيصة من المهاجرين المسلمين، فقد كانت هناك مثلا معاهدات هجرة خاصة بين بلجيكا وكل من المغرب وتركيا منذ عام ١٩٦٤ حتى عام ١٩٧٤، وتمت بمقتضاها دعوة المهاجرين المسلمين للقدوم مع عائلاتهم للعيش فى بلجيكا ليحلوا مكان الإيطاليين والأسبان واليونانيين والبرتغاليين الذين أصبحت أجورهم عالية، وكان قدوم المهاجرين المسلمين مرغوباً فيه لأنه يحقق فائدة للاقتصاد فى بلجيكا، وقد شجعتهم الحكومة على إنجاب الأطفال لتعويض النقص فى السكان، وكانت الحكومة البلجيكية تعرض على المهاجرين المسلمين القادمين عليها نشرات دعائية لإغرائهم بالإقامة فى مدن جديدة خضراء فيها وسائل الراحة، ويتوافر فيها الشراء بالأجل، وجاء المهاجرون المسلمون، وأنجبوا أطفالهم، وبعد سنوات بدأ الحديث فى بلجيكا عن مشكلة الهجرة!

وينقل مقال نيوزويك عن البروفيسور الفرنسى أوليفيه روى قوله: بأن ما يزعج الأوربيين تجاه الإسلام أنه يبدو من المستحيل فهمه واستيعابه، وليس هناك نتيجة للرفض الأوربى للمسلمين المقيمين فى أوربا سوى زيادة الغضب فى نفوسهم.

ويشرح المقال حال المسلمين المهاجرين فى أوربا، ويضرب مثالا بما يحدث فى ألمانيا منذ أوائل التسعينات عندما بدأ المجتمع الألمانى يظهر كراهيته للمهاجرين والأجانب وللمسلمين منهم بصفة خاصة، وبدأ التراجع فى سياسة

الهجرة، وتحول المهاجرون واللاجئون إلى ضحايا، بعد أن أغلق المجتمع الألمانى الأبواب فى وجوههم، وأصبحوا هدفا سهلاً لهجمات اليمين، وجاء رد الفعل من جانب المهاجرين الأتراك المسلمين بظهور عصابات من الشباب يقومون بضرب كل من يشتبهون فى أنه من النازيين الجدد، وبعد ذلك تحول كثير من الشبان الأتراك إلى الجماعات الإسلامية بحثا عن الدعم والمساندة لديها. ولكن الأتراك فى ألمانيا انقسموا بعد أن قام الجيش التركى بالحرب ضد الأكراد فى جنوب شرق تركيا، وعمل الأتراك الأكراد على الرد على هجمات الجيش التركى بالقيام بهجمات على البنوك ووكالات السفر والمؤسسات الثقافية التركية فى ألمانيا، وبدأ الانقسام بين الأتراك ينمو فى الداخل والخارج تبعا للانتماء العرقى، حيث يعيش الجانب الأكبر من الأتراك فى ألمانيا حياة يغلب عليها الدين، وينسحبون من المجتمع الألمانى، ويعيشون فى أحياء خاصة بهم، ولا يتعلمون اللغة الألمانية، وهذه الجماعات هى التى يسهل على الجماعات الدينية المتطرفة الوصول إليها والتأثير فيها.

وفى هذا المقال تحليل لأسباب ظهور الجماعات الإسلامية المتطرفة فى ألمانيا وغيرها من دول أوربا فيقول: إن الصراع الاجتماعى لا يمثل غير سبب واحد ضمن أسباب أخرى عديدة، فالإسلام يزدهر فى أوربا فى الوقت الراهن كعقيدة، بينما لا تزال المسيحية ضعيفة، وفى نفس الوقت سقطت الشيوعية وأصبحت مكروهة ومشوهة. وكذلك فإن الفاشية الجديدة التى ظهرت فى ألمانيا وفرنسا وغيرها من دول أوربا ليست إلا تعبيرا بدائيا عن كراهية ورفض لما وصل إليه الغرب، وبذلك أصبح الغرب يعيش مرحلة ليس فيها أيديولوجية قوية تستقطب الاهتمام. وبعد أن انتهى الخصم الأكبر للغرب فإنه يبحث عن الخصوم.. من هم؟، وأين هم؟ لذلك نجد البريطانيين بعد انهيار الاتحاد السوفييتى أكثر حساسية تجاه المسلمين والشخصية الإسلامية دون غيرها من المهاجرين إليها. وتعبيراً عن حالة بريطانيا فى هذه المرحلة قالت كارين ارمسترونج: إن الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتى انتهت، ويوشك أن يكون الإسلام هو البديل على الصعيد النفسى ليصبح هو الخصم للغرب وتكون الحرب الباردة من الغرب ضد الإسلام!

وهذا يفسر ما حدث فى عام ١٩٩٠ عندما قام النازيون الجدد بإلقاء رءوس الخنازير داخل القاعة الأمامية فى المسجد المعروف فى الجزء الشرقى من لندن، كما ألقوا فى المسجد أجزاء من لحم الخنزير لأنهم يعلمون أن المسلمين يعتبرون أن لحم الخنزير (نجس) ومع ذلك لم تبلغ إدارة المسجد عما حدث وقررت عدم إثارة الموضوع فى الصحافة، وقال نائب مدير المسجد: إن هؤلاء العنصريين يريدون الشهرة، وسوف نحرمهم منها. إلا أن حادثة أخرى وقعت ولم يتمكن أحد من إخفائها، وذلك فى عام ١٩٩٢ حين أشعل أحد الأشخاص النار فى قاعة المؤتمرات فى المسجد فاحترق أثاثها، ولم يمنع وقوع كارثة محققة سوى الاستجابة السريعة من جانب أجهزة الإطفاء فى لندن.

وفى هذا السياق كتب توماس فريدمان مقالا فى صحيفة (نيويورك تايمز) عدد ٢٨ نوفمبر ٢٠٠٢ بعنوان (على المسلمين نزع فتيل القنبلة المقدسة) ، أشار فيه إلى بعض عمليات التفجير التى يقتل فيها الفلسطينيون عددا من المدنيين الإسرائيليين، دون أن يشير إلى عدد الحوادث التى قامت فيها سلطات الاحتلال الإسرائيلى بقتل المدنيين الفلسطينيين وفيهم أطفال ونساء وشيوخ.

والمقال فى صورة خطاب من الرئيس الأمريكى جورج بوش إلى قادة العالم الإسلامى يقول فيه على لسان بوش: دعونى أكن صريحا، إننى أزداد قلقا من أن نكون فى طريقنا نحو حرب بين الحضارات، هل تعلمون عدد الجماعات التى اعتنقت الدين الإسلامى حديثا فى أمريكا؟.. إنهم كثيرون وليست لدينا مشكلة فى ذلك، وهكذا نحن، ولكن من أنتم؟، ويقول أيضا: إننى أعرف أن جنودا إسرائيليين قتلوا عشرات الأطفال الفلسطينيين أثناء الانتفاضة، وهذا أمر مخز، ولكننى لم أسمع الجنرالات أو الحاخامات يشكرون الرب لأن أبناءهم قتلوا الأطفال المسلمين، إن الجنود الذين يطلقون النار على الأطفال مخطئون، والعمليات الانتحارية الفلسطينية أيضا خطأ، ولا يوجد إله يبارك أيا منهما.

ويذكر فريدمان حوادث إرهابية اتهم بارتكابها إسلاميون، ويعلق على ذلك على لسان الرئيس بوش فيقول: لعلكم تفهمون الآن لماذا يتم أخذ بصمات الأصابع لكل من يقيم فى أمريكا من الدول العربية.. وأنتم تقولون إن ذلك يحدث لأننا نساند إسرائيل، وأنا أعلم أننا يجب أن نعمل المزيد للوصول إلى السلام، ولكننى

لا أعتقد أن المرضة الأمريكية التى قتلها مسلم، أو القنبلة التى فجرها مسلمون فى جزيرة بالى الأندونيسية كانت لأننا نساند إسرائيل، وأنا أعتقد أن ما يحدث له علاقة بظهور الإسلام المتشدد بينكم، وهو ليس رد فعل لإسرائيل، ولكنه رد فعل لنظم الحكم الفاشلة، وثروة البترول المبددة، والايديولوجيات المحطمة (الناصرية) وجيل من الأوتوقراطية، والأمية، مسلح، وغاضب، وهذا ما أدى إلى ظهور هذا التعصب القاسى الذى يكره حتى المسلمين المعتدلين. ولكن القيم التى ينشرها هذا الجيل من المسلمين المتعصبين ستؤدى إلى الدمار لكم كما ستؤدى إلى الصراع معنا. كما كتب برينك ليند ساى الباحث فى معهد (كاتو) فى بحثه فى مجلة (ناشيونال ريفيو) يقول: (لا توجد عقيدة تجعل من حفظ النصوص القديمة عن ظهر قلب بدون فهم، وكبت الأسئلة حولها، ومنع نقدها أو إظهار الاستياء منها، واستعباد المرأة، والإذعان الذليل للسلطة، يمكن أن تكون الوصفة لتحقيق أى شىء غير الانحدار الحضارى).

ثم يقول على لسان الرئيس بوش : (إن الذين يعتنقون الإسلام المعتدل سلبيون. بينما يجب أن نحارب هذا التشدد القاسى، ونحن أيضاً عندنا متعصبون متشددون، ولكنى أبعدت نفسى علانية عن هؤلاء المسيحيين الذين يشوهون سمعة الإسلام، وترفضهم الأغلبية المعتدلة ووسائل الإعلام عندنا باستمرار، وهم ليست لهم الهيمنة على مجتمعنا، نحن عندنا حرب أهلية ضد التشدد. والآن فإننى أطالبكم بأن تكون لديكم حربكم أيضاً ضد التشدد. ولا تقولوا إنكم لا تستطيعون؛ ففى إيران خرج الطلبة الشجعان فى مظاهرات المواجهة والتحدى للمتشددين المتطرفين فى مجتمعهم معرضين حياتهم للخطر من أجل محاربة الذين يريدون العودة بالإسلام وبدولتهم إلى العصور المظلمة.. وإذا لم تكن عندكم حرب داخل حضارتكم فسوف تكون هناك الحرب بين حضارتكم وحضارتنا، دعونا إذن نخصص العام القادم لمحاربة التشدد فى الداخل حتى يمكن الحفاظ على العلاقات بيننا.

وما فى هذا المقال من مغالطات لا تخفى على فطنة القارئ.. فإرهاب الدولة الإسرائيلية ليس إرهابا، ومقاومة الاحتلال هى التى تعتبر عندهم إرهابا. وفى أمريكا متشددون ولكن الأغلبية لا تؤيدهم. فلماذا لا يرى ما فى العالم الإسلامى

من رفض الأغلبية المعتدلة للمتشددين، ورفض الإرهاب باسم الإسلام ، وإدانة كل أعمال الإرهاب؟ والابتعاد عن الذين يشوهون الإسلام دليل كاف على أن العداء للإسلام انتهى، بينما الواقع أن جميع القادة والمفكرين والسياسيين والمثقفين، وعامة المسلمين، يبتعدون عن المتشددين ويتبرءون منهم ويدينون أعمالهم فلماذا لا يكون ذلك كافيا لاقناع السيد توماس فريدمان بأنه منحاز، ويرى السيئات حسنات لأنها ترضيه، بينما لا يرى الحسنات على الجانب الآخر فى العالم الإسلامى!!

ولكنه أحد الصناع المهرة للعداء ضد الإسلام والمسلمين والدوافع معروفة.

وبالنسبة للصحف الشعبية في بريطانيا فإن الإسلام ليس خطراً فقط. بل إن هذه الصحف تتحدث عنه على أنه (دين بدائى)!! ولذلك كانت تغطية هذه الصحف لزواج نجم الكريكت الباكستانى عمران خان تمثل خير دليل على ذلك؛ إذ حذّر المعلقون فى هذه الصحف من أن زوجته التى اعتنقت الإسلام (جمايما جولد سميث) ستعيش حياة من القهر وراء الحجاب، وستعانى من اضطهاد أشقاء وشقيقات زوجها، على أساس أن المرأة فى المجتمع الإسلامى تعيش حياة ذليلة، تعانى فيها من القهر والقسوة وسوء المعاملة..

فإذا كانت هذه هى نظرة المجتمع الغربى للإسلام والمسلمين فكيف يتعامل الغرب مع العدد المتزايد من المسلمين ضمن سكان أمريكا ودول أوربا جميعا..؟

لقد تغيرت نظرة المجتمع الغربى إلى الإسلام والمسلمين، وأصبحت الدول الغربية تعلن الضيق بوجود المسلمين فيها، وعبر عن ذلك هيلموت كول حين كان مستشارا لألمانيا بقوله: (إن ألمانيا ليست بلد هجرة) وردَّد معظم الساسة الألمان مثل هذا القول بصيغ مختلفة، ومع ذلك فإن وجود المسلمين فى أوربا أصبح حقيقة واقعة، فقد اندمج الأتراك المسلمون فى المجتمع الألمانى وأنشئوا نحو ٣٧ ألف شركة ومؤسسة تستخدم نحو ١٣٥ ألف عامل ويمثل العمال الألمان ١٥٪ فيها، واستقر المهاجرون الأتراك المسلمون فى ألمانيا وأنجبوا وكبر أبناؤهم وظهر الجيل الثالث، وبعضهم يتحدث الألمانية، ومع كل ذلك فإن المسلمين الذين أصبحوا مواطنين ألمانا لا يزيدون على ٤٪ فقط، حتى مع دعوة حزب الخضر إلى سياسة ليبرالية مع الأقلية المسلمة.

وبالمقارنة فإن ٧٥٪ من مسلمي بريطانيا مواطنون بريطانيون، لكنهم لم يحصلوا على الجنسية حتى يمكن اعتبارهم مثل سكان ويلز أو اسكوتلاندا، ولكن يعتبرهم القانون البريطانى مجموعات مثلهم مثل السود، والهنود، وينظر إليهم البريطانيون كمجموعة وليس كأفراد. ومن حين لآخر تصدر عن الحكومة البريطانية إشارات مطمئنة للمسلمين تخفف عنهم ما يذوقونه من تمييز، وأدت هذه السياسة الحكومية إلى تحقيق نجاح ملحوظ خفف من السخط السياسى والتعصب والحماس الدينى، ومع ذلك فلم يستفد المسلمون من هذا الوضع فى بريطانيا. وحتى الآن لا توجد مؤسسة أو منظمة واحدة تتحدث باسم المسلمين فى بريطانيا جميعا، ولكن الأمر كما قال الدكتور زكى بدوى إمام مسجد لندن الكبير: (إن أى شخص يقف ويدعى أنه يتحدث نيابة عن اثنين أو عشرة من المسلمين وليس هناك من يتحدث نيابة عن كل المسلمين) ومعنى ذلك أن ما بين المسلمين عقيدة مشتركة وليس ثقافة مشتركة، وفضلا عن ذلك فإن كثيراً من المسلمين يعيشون فى بريطانيا كما لو كانوا ما زالوا يعيشون فى قراهم التى هاجروا منها!

ولا تمثل الثقافة المشتركة مشكلة بالنسبة للمهاجرين المسلمين فى فرنسا، لأن الفرنسيين يفرضون ثقافتهم فرضاً على كل من يعيش فى فرنسا، والجانب الأكبر من الجدل العام حول المجموعات الإسلامية يظهر فى شكل خطابى مناهض للمهاجرين، على الرغم من أن الموقف الرسمى المعلن للحكومة الفرنسية هو عدم التفرقة بسبب الدين واللون، والقول بأن فرنسا تعيش على أساس أن فكرة (الأقليات) غير مقبولة بموجب الدستور. ومع ذلك فإن المهاجرين المسلمين فى فرنسا يواجهون المتاعب من المعاملة القائمة على التمييز، ويظهر ذلك من حين لآخر كما حدث عندما منعت التلميذات المحجبات من دخول المدارس الفرنسية، ويقول (أوليفييه دوى) مؤلف كتاب (فشل الإسلام السياسى): إن الجدل حول الحجاب مرتبط بقضية دقيقة وحساسة أخرى تتعلق بنظام الزواج، ففى الإسلام يتزوج الرجل بأكثر من زوجة مسلمة فى وقت واحد. ويحرم الإسلام على المرأة المسلمة أن تتزوج رجلا غير مسلم، ومع ذلك فإن ٢٠٪ من النساء المسلمات فى فرنسا تزوجن رجالا من غير المسلمين، وهذا ما يسبب صدمة عميقة لعائلاتهن،

ومع كل جيل جديد تزداد الأعداد أكثر..!. ومثل هذه الأوضاع لا تسر أمثال الشيخ عبد الباقى صحراوى (٨٢ سنة) الذى كان يقف إماما فى المسجد بعد صلاة الجمعة ليقول للمصلين: (يعتقد الفرنسيون أن عليهم أن يدمجوا المسلمين فى مجتمعهم ليصبحوا فرنسيين ويتخلوا عن كل ما يمثلونه ويمتلكونه من قيم ومبادئ، بل ويتخلوا عن الإسلام ذاته، فعليك أن تشرب الخمر وإلا فلن تصبح فرنسياً. وإذا ما تمكن أمثال هذا الشيخ من فرض آرائهم فلن يستوعب المجتمع الفرنسى المسلمين! وكان الشيخ وأنصاره يواجهون هذا القول بالرفض والرد بإصرار (إذا أردت للإسلام أن ينمو ويكبر، فيجب أن يكون فى فرنسا مسلمون حقيقيون يمكن أن يصبحوا قوة).

وينتهى مقال نيوزويك إلى أن الخطوط مرسومة، والحواجز موضوعة، وسيكون حل الصراع صعبا، إذ تعيش ثقافتان متعاديتان على أرض أوربا وامتدت إلى أمريكا، تكره كل منهما الأخرى على مدى أكثر من ألف عام على هذه الأرض، وإذا لم يتم العثور على وسائل لتقريب الثقافتين، لبناء مستقبل مشترك على هذا الماضى المنقسم، فقد تواجه أوربا وأمريكا سنوات لا حصر لها من الاضطراب.

هكذا يشعلون فتيل الكراهية للإسلام والمسلمين بدهاء وذكاء شديدين، وما عليك سوى العودة إلى قراءة ما وراء سطور مقال نيوزويك لترى كيف يثيرون مشاعر الأوربيين والأمريكيين على الإسلام والمسلمين..؟

هل الصهيونية وراء هذه الحملة الشديدة للاضطهاد والكراهية..؟

هذا سؤال يحتاج إلى أكثر من دليل لتصديق الإجابة عنه.

ولقد قيل كثيرا: إن الصهيونية كانت وراء فوز الكاتب نايبول البريطانى الجنسية بجائزة نوبل فى الأدب لعام ٢٠٠١ وهو أصلا من ترينداد، وقد أثار فوزه بهذه الجائزة العالمية الكبرى ردود فعل شديدة فى العالم، حتى فى السويد عاصمة جائزة نوبل، فقد استقبلت صحافتها ذلك بتحفظ شديد، وهاجم النقاد الأكاديميون فى السويد لجنة جائزة نوبل لمنحها الجائزة لهذا الكاتب المتعصب الكاره للإسلام، وقالت: إن ميوله العنصرية معلنة، وعداءه للإسلام صريح فى كتاباته، أما فى بريطانيا التى عاش فيها الكاتب ٥٢ عاما، فقد نشرت مقتطفات

من كتاباته التى يتهجم فيها على الإسلام. وعبر بعض الكتّاب السويديين عن سعادتهم لفوز نايبول لأنه مثير للجدل، وأشادوا بقدرته على التعبير عن (المقهورين)، مبررين مواقفه المعادية للإسلام. فى رواية (وصف حياة) يقول نايبول: (إن اعتناق الإسلام يعنى أن تمسح تاريخك، وأن تسحق بالأقدام ثقافة الأجداد، وأن تردد ما يقوله المسلمون من أن هذه الثقافة لا وجود لها) وقد علق أحد النقاد السويديين على مثل هذه الأقوال لنايبول فقال: لهذا السبب منحت الأكاديمية السويدية الجائزة إلى هذا الرجل الذى يشهر علنا ازدراءه للإسلام. وهو بكتاباته يضع الأمور على حافة هاوية.. وجاءت إليه الجائزة بعد شهر واحد من هجمات سبتمبر فى نيويورك وواشنطن، والمسلمون مطاردون فى جميع أنحاء العالم، فجاء أدب نايبول متوافقاً مع نظام الرئيس الأمريكى جورج بوش، وجهاز المخابرات الأمريكية، والدعاية السياسية الأمريكية وقالت الكاتبة لينا بورديبو فى صحيفة (داجيتس نيهيتر) السويدية واسعة الانتشار: إن فى. اس. نايبول اثار الجدل الواسع للكتابات التى ساوى فيها بين الإسلام والاستعمار حتى إن واحدا من أكبر أصدقائه على مدى ثلاثين عاماً هو الكاتب باول ثيروكس أصبح من ألد أعدائه.

وفى لندن نشرت صحيفة (الجارديان) الصادرة يوم ١٢ أكتوبر ٢٠٠١ مقتطفات من كتابات نايبول التى يهاجم فيها الإسلام، وعلقت بأنه فى الوقت الذى ينزلق فيه العالم إلى حافة الحرب، عبر نايبول عن أفكاره حول تأثير الإسلام بقوله: إن الإسلام يملك تأثيراً ضاراً على الناس الذين يعتنقونه، لأن المطلوب من المسلمين أسوأ بكثير من إلغاء الشخصية القومية الذى كان يسعى إليها الاستعمار القديم.

هكذا تعددت التعليقات التى تقول: إن حصول نايبول على جائزة نوبل فى الأدب يأتى فى إطار الحملة التى يقوم بها الغرب على الإسلام، والتى ازدادت قوة وشراسة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. واتفق النقاد الغربيون أنفسهم على أن نايبول مشهور بكتاباته ضد الإسلام وباتجاهاته العنصرية المتشددة، وأن حصوله على نوبل يدعم الشكوك حول الجائزة ومن يقومون باختيار من يستحقونها، لأن كتابات نايبول تؤكد على أن الإسلام مثل البوذية والهندوسية،

ويقول عن الإسلام: إنه دين وثنى، وإنه دين سطحى، ومنح الجائزة لهذا الكاتب بالذات ليس إلا دعما للهجمة الشرسة على الإسلام بالسلاح والفكر.

وهكذا فإن جائزة نوبل كانت تمنح لمن يوجهون السهام ضد الاتحاد السوفييتى ضمن الحملة عليه أثناء الحرب الباردة، كما منحت لأنصار إسرائيل من مختلف الأجناس والجنسيات، وأخيراً هاهى ذى تمنح لمن يوجهون السهام للإسلام ضمن الحملة عليه فى الحرب الجديدة عليه. ولم يعد أحد يفكر أن نوبل تمنح لأسباب سياسية وليس فقط لأسباب موضوعية محايدة، وربما لهذا السبب لم يبد كاتبنا العظيم نجيب محفوظ احتفالا كبيرا بجائزة نوبل حين جاءت إليه.

ولكن فوز نايبول بالجائزة كن رسالة لكبار المبدعين والكتّاب فى العالم: من أراد أن يحصل على نوبل منذ الآن فلا يكفى أن يكون عبقريا ولكن يجب أن يكون عدوا للإسلام أيضا!